الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة عمار ثليجي– الأغواط

كلية: الأدب واللغات
قسم: اللغة والأدب العربي

مذكـــرة ماستـــر

تقديم الطالب (ة): طعيبة خيرة

ميدان: اللغة والأدب العربي.
شعبة: لغة وأدب عربي.
تخصص: أدب عربي قديم.

أدب الرحلة بين الفن والتشويق
"ابن بطوطة" نموذجا

مذكرة مقدمة لنيل درجة الماستر في اللغة والأدب العربي

أعضاء لجنة المناقشة

الاسم واللقب	الدرجة العلمية	الصفة
شتيح يوسف	أستاذ محاضر" أ "	رئيسا.
بن شاعة جلول	أستاذ مساعد " أ "	مشرفا ومقررا.
غريبي خيرة	أستاذة محاضرة " ب "	مناقشا.

السنة الجامعية: 2018/2017 – 1438/ 1439

شكر وعرفان:

أشكر من ساهم من قريب أو بعيد في إعداد هذا العمل وعلى رأسهم المشرف بن شاعة جلول الذي لم يتردد عليّا يوما في تقديم المساعدة لي.

وأخصّ بالشكر إلى الأخ العزيز مقوسي مُحَمَّد الذي مدّ لي يد العون ولم يبخل عليّا بمساعدته.

وأُوجه شكرا خاصًا لأعضاء لجنة المناقشة على قبولهم قراءة ومناقشة هذا العمل.

الاهداء

الى روح أبي الطاهرة رحمه الله.

إلى أمي الغالية أطال الله في عمرها.

إلى كل الاخوة والأخوات وأولادهم كل واحد باسمه.

إلى زوجي عبد الرؤوف مُحَمَّد حفظه الله.

إلى كل الصديقات بدون استثناء.

وإلى كل أساتذة قسم اللغة العربية وآدابها.

مقدمة:

الحمد لله على نعمه ظاهرة وباطنة، حمدا من لسان يشهد يصدق القلب والسمع والبصر، الشكر لله على كل حال والصّلاة على النبي مُحَمَّد وعلى أله وصحبه الاسياد.

خلق الله الإنسان محبا للحركة والتنقل وأمده بالعقل الذي يدعوه لذلك والجسم القوي الرشيق الذي يعينه على الانتقال من موضع لآخر بحثا-في البداية-عن طعامه وشرابه هربا من القوى المعادية، وقد بدت له عاتية مخيفة، سواء كانت الطبيعة من برق ورعد وعواصف أو فيضانات وزلازل وبراكين أو كانت حيوانات ضخمة كالديناصورات والأفيال، أو مفترسة كالأسود والنمور والذئاب.

فالحركة روح الحياة وهي سمة أساسية في التركيب الجسدي والنفسي للإنسان وقد هيأه الله لها، وجعلها إمكانية ضرورية لحياته، تتسق مع الهدف من إيجاده والغاية التي خلق لأجلها، وهي تعمير الأرض وعبادة الله تعالى.

وتعد الرحلة نصّا مفتوحًا على كافة الحقول بأشكال مكتملة أو جزئية إلّا أنها تضل مشدودة في دائرة الأدب لما تحمله من فن وتشويق ولما تحمله من العجائبيّة والغرائبيّة.

وكانت وجهتنا في هذا العمل أن يكون موضوع رسالة التخرج هو دراسة أدبية الرحلة الغرائبية والعجائبية في رحلة ابن بطوطة.

وكان سبب اختياري لهذا الموضوع لمجاله الواسع ولما تحمله الرحلة من تشويق وابن بطوطة خصيصا لأهمية رحلته ولما تحمله من عجائب وغرائب والرحلة طريق واسع وشاسع من المغامرات والكشف الدائم عن ما هو غريب وعجيب ومعرفة المجهول.

وبدافع رغبتي لمعرفة هذه الرحلة أكثر مما قيل عنها ولما تحمله من تشويق وعلى الرحالة ابن بطوطة الذي أصبح رمزا من الرموز الكبيرة في الرّحلات العربية وأهم رحالة يعطي صورة للآخر.

تحفيز الأستاذ المشرف الذي كان له الفضل في اختياري لهذا الموضوع وانطلقنا في بحثنا هذا من الإشكالية الآتية:

- ما مفهوم أدبية الرحلة؟ وما الذي ينطوي عنه من الاحتواء في النوع والجنس الأدبي والتداخل الحاصل فيما بينهما؟

وللإجابة عن هذا السؤال تشكلت لدينا أسئلة فرعية هي:

- كيف أن أدب الرّحلة صار نصًا مدونًا؟ وأين تكمن الغرائبية في رحلة ابن بطوطة؟

وقد أملى عليا بحثي هذا خطة اقتضت مني تقسيمه بعد مقدمة الى مدخل وفصلين وخاتمة.

الفصل النظري بعنوان أدبية الرحلة، ومقصدتيها، وتطرقت فيه الى تعريف الرحلة والرّحالة ابن بطوطة ودوافع وأسباب الرّحلة بصفة عامة وأنواع الرّحلات وخصصت بالذكر الرحلة الدينية والرّحلة العلمية والتاريخية والرّحلة الأدبية.

أمّا الفصل التطبيقي الذي جاء بعنوان الغرائبية في الرّحلة تطرقت فيه الى الحديث عن أصول الغرائبية أي جذورها في الأدب وتحدثت كذلك عن تجليات الغرائبية في رحلة إبن بطوطة وأخيرًا ختمت بحثي بحصيلة لأهم النتائج التي توصلت إليها بالإضافة الى قائمة الفهارس، أمّا فيما يخص أهم المصادر والمراجع التي استخدمت في البحث، فقد تمت الاستعانة بمراجع متعلقة بكتب الرّحلات منها: الرحلة في الادب العربي، شعيب خليفي، أدب الرّحلات الأندلسية والمغربيةّ، د-نوال عبد الرحمان الشوابكة.

أدب الرحلة في التراث العربي، فؤاد قنديل.

موسوعة علماء العرب، د-ناصر عبد الناصر الرازق الموافي /أحمد السكري.

الرّحلات بإقليم توات، الأستاذ عبد الله كروم.

وقد ذكرناها كاملة في آخر هذا البحث وحرصا منا على رد كل ما هو مأخوذ الى مصادرها التزاما منا بالأمانة العلمية في إنجاز هذا البحث وبالإضافة إلاّ أنه كان بحثا علميا أكاديميا لا يخلو من الصعوبات والعوائق التي تعترض سبيل أي باحث، والصعوبات التي اعترضت طريقي في هذا البحث

انني تطرقت لدراسة عنصر بالغ الأهمية في الرحلة وهو العجيب والغريب وهذا لعدم توفر المراجع التي تخص الأدب العجائبي وعدم المعرفة الكافية بما يتعلق به.

وبالرغم من الصعوبات والمتاعب إلّا أنني بحمد لله أنجزت هذا العمل المتواضع، بالإضافة إلى أن الفضل يرجع للأستاذ المشرف بن شاعة جلول الذي لم يبخل عليَّ بمساعدته وإرشاداته المستمرة طيلة عملي في هذا البحث.

«إن البحث عن تحديد دقيق لمفهوم الرّحلة كان سببًا في إختلاف وجهات نظر الباحثين ذلك أن الرّحلة نّص مفتوح لا يمكنه أن يتسيج في خانة محددة تجنسه بصفة معينة وتضيق من تحرره واتساعه وانتشاره على حقول أخرى» [1].

«اهتم اللّغويون والنقاد القدامى في إطار ما أنتجوه من قواميس وكتب لغوية متنوعة للحديث عن الأساليب والأشكال النثرية، لكن وقوفهم عند المنتجات لم يشمل كافة الأشكال ومن ضمنها الرّحلة، التي لم نجد لغويا أو ناقدا أفرد لها بابا يرصد تاريخها وقوانين تشكلها»[2].

اولا: مفهوم الرّحلة لغة:

جاء في معجم الوسيط، في مادة (رحل) ما يلي: رحل عن المكان رحْلاً ، ورحِيلاً وترحالاً، الرّحالُ: العرب الرُّحَّلُ: الذين لا يستقرون في مكان، ويحلون بما شيتهم، حيث يسقط الغيث، وينبت المرعى. الرَّحَّالَةُ : الكثير الرِّحْلَةُ (الرِّحْلُ): العرب الرُّحَّلُ-الرُّحَّالُ.

الرِّحْلَةُ : الارْتِحَالُ، جمع (رِحل) في التتريل نقرأ قوله تعالى: "رِحْلَةَ الشَّتآءِ والصَّيْفِ" سورة قريش

الرحلة: كتاب يصف فيه الرحالة ما رأى (الرُّحْلة): ما يرتحل اليه، يقال الكعبة رُحْلَة المسلمين، وأنتم رُحْلِي، (الرَّحُولُ): كثير الإِرْتِحَال[3].

[1]- شعيب حليفي: الرحلة في الادب العربي، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1 ،2006،ص42.

[2]- المرجع نفسه، ص50.

[3]- عبد الله كروم، الرحلات بإقليم توات، دراسة تاريخية وادبية للرحلات المخطوطة بخزائن توات، ص،33.

ثانيا: مفهوم أدب الرّحلة اصطلاحًا

ويسمى (أدب الرَّحْلاَت)، وهو من الفنون الأدبية التي عرفت ازدهاراً في ادبنا العربي منذ القرون الأولى.

حيث عرف العرب التقويم والبلدان من المراحل الأولى للتأليف، وخطوا مؤلفاتهم في رحلة عامة، ووصفوا فيها ما يرون ومن يرون، وجعلوا كتبهم تأخذ طابعاً فنياً ادبياً تاريخيا، وجغرافياً ، حتى أصبحت اشبه بالموسوعة الثقافية، ويهتمون في كتابة رحلاتهم بأسلوب التشويق، فجاءت رحلاتهم ناقصة من جانب علمية الموضوع، كما ان هناك أعلامًا قاموا برحلاتهم، وسجلوا منظوراتهم بدقة، لكن كتبهم لم تسلم من الضياع، وبعضهم دونوا مذكراتهم في رحلاتهم من غير ان تكون الرحلة سببا في صناعة الكتاب، كأن يكون السبب إجتماعيا، أو لطلب العلم، او لاضطهاد مذهبي.

والراصدون لهذا النوع السّردي الحفيون به، يتعقبونه في مظانه عصرًا عصرًا، حتى العصر الحديث، وذلك ما سنبسط فيه القول لاحقا. ولما جاء عصر النهضة وأصبح معه (ادب الرحلة) نوعًا ادبيًا متميزًا، له سماته، وخصائصه، وطرائق أدائه، نهض في تكوينه الرحالة، والمكتشفون، والمستشرقون، والمنا ديب، وذو السفارة السياسية، والدينية، والعلمية، وساعدت وسائل المواصلات، والاتصالات المتطورة على توسيع قاعدته، ومشمولاته، حتى أصبح هذا اللون ادبا وعلما في آن واحد، تعددت فضائل المهتمين به، والمستثمرين له، وكاد أن يختلط بـ(اليوميات)، و(المذكرات)، و(الذكريات)، و(السيرة الذاتية).[1]

ثالثا:الانسان والرحلة

يولد الانسان مفطورا على حب التجوال والضرب في البلدان والنأي عن الأوطان باحثا عن نعمة سابغة أولقمة سائغة أو حكمة ضالة ،أو تأدية لفريضة منزلة بل ان الانسان منذ خليقته الى الأبد قصة رحلة تتجدد مع كل انسان من صرخة وضعه الى أنه نزعة وما بينهما من الأتراح والأفراح

[1]- عبد الله كروم :الرحلات بإقليم توات ،مرجع سبق ذكره ،ص35.

،رحلة عمر وحتى الحيوان الأعجم يرحل ويسافر وينتقل من مكان الى آخر فالأسماك ترحل من أماكن الملوحة الى أماكن أكثر عذوبتا أو أكثر استقرارا لوضع بيضها وترحل الطيور وتهاجر من أعشاشها أو تعبر البحار والمحيطات ثم تعود في مسارات معلومة واتجاهات مرسومة وحتى الحشرات كالجراد تنتقل من إقليم الى اقليم[1].

وتشير كتب التاريخ الطبيعي والأنثروبولوجيا وغيرها الى أن الانسان لم يتوقف عن الحركة والتنقل حتى بعد أن تعلم الزراعة وعرف كيف يستقر ويبني ويؤسس المجتمعات لقد ظل على مدى العصور والقرون يتطلع بعينيه الى الآفاق البعيدة ولا يكف عن التفكير فيما تضمه من الخلق والموجودات وفيما تحمله من الكنوز والخيرات خاصة حين يضيق به الحال ويحف الماء والضّرع.

وهو الى جانب ذلك مَشُوقً الى معرفة موضع الشمس الذي منه تشرق والى معرفة مسكنها الذي اليه تغرب وحريص على أن يعرف من أين ينبع النهر الذي يتدفق في أرضه والى أين ينتهي، وكلما مرت السنون رأى في دنيا عجبا إثر عجب وجديدا يعقب جديدا وحديثا ينسخ قديما وهو لا يستطيع أن يفكر أبدا وهو جالس في كوخه أو داره فما الفكر في هذه الحالة الى عجلات تدور في موضعها وليس الا خطوات تسيير في محلها وهو يريد أن يعرف دوافع الرغبة في المعرفة بلانهاية ذاتية وموضوعية عقلية ونفسية وغيبية أيضا.

وإذا كان العالم اليوم قد أصبح قرية صغيرة، فان العالم في الماضي كان قرى كثيرة مبعثرة فوق رقعة هائلة من المعمورة، ولم يكن من سبيل لمعرفة الأحوال خارج القرية الواحدة، الّا الترحال.

والحق أن الإنسان – منذ أن يولد حتى يموت – في رحلات دائبة، تتعدد أشكالها بمرور الأيام، وبتغير الظروف والأحوال، بل أن لحظات ميلاده تعد رحلة من رحم الأم الى دنيا البشر، تمهيدا لرحلة نهائية وسرمدية تبدأ يوم ينفخ في الصور، وهناك رحلات أخرى متباينة عن طريق العلم من مرحلة الى مرحلة وعلى طريق النضج من عمر الى عمر ،وفي إطار التشكيل الإجتماعي هناك

[1]– عبد الله كروم ، مرجع سابق ،ص13.

رحلة من العزوبة والفردية الى الزواج وتكوين الأسرة وهناك رحلات داخل أرض الوطن كالانتقال من قبيلة الى أخرى أو من القرية الى المدينة أو من البدو الى الحضر، ورحلات من داخل الوطن الى خارجه ،وتتسع مساحة الحركة وتمتد الرحلة لتصبح من الأرض الى القمر والكواكب[1].

رابعا: مسيرة الرحلة العربية:

كان التوسع في الفتوحات والنجاح السياسي الكبير الذي حققته الدولة الإسلامية، خاصة في القرن الثاني للهجرة، حافزا على غزو ميادين جديدة تعزز النصر السياسي والحربي وتتفتح به مجالات معرفية تحقق المجد العقلي والحضاري، وتأسس لبناء دولة متقدمة، تقوم على العلم الى جانب الايمان، وتتيح الفرصة كاملة للعقل البشري للابتكار والابداع، فبعد ان أضاءت الدعوة الإسلامية قلب الانسان بنور اليقين بوجود الله كان عليها ان تيره بمعرفة ذاته والكون من حوله.

وتمثلت بداية الانطلاق الكبرى في الترجمة حيث قام المترجمون بتشجيع من الخلفاء من حكام العرب، بترجمة أمهات الكتب المعروفة آنذاك عن اليونانية والسريانية والفارسية.

كشفت الترجمة فيما كشفت أن شعوبا كثيرةً قد سبقت العرب على طريق المعرفة، وقطعت أشواطا كبيرة لاكتشاف المجهول من الأرض وغزته برًا وبحرًا، فأنفتحت على مصراعيها، شهية المئات من العرب لمحاولة مشاركة في معرفة العالم بالخروج من خيمة الوطن التي تحضنهم وتقعدهم في ضلالها الحانية.

إنطلقت الرحلات وتحمس الكثيرون للسفر، سواء للحج أو طلب العلم والتجارة وفي الإطار الرسمي دعت الحاجة الى تنظيم علاقات الدولة بالولايات التابعة لها الى ارسال الرّسل والاهتمام بشؤون البريد وتكليف العمال بجمع الجزية والخراج.

[1]- فؤاد قنديل ،ادب الرحلة في التراث العربي،ص17-1.

ولقد تعددت أوجه الرحلة وأغراضها بمرور الأيام وأيا ما كان الغرض منها فقد حرصت طائفة من الرحالة على تدوين مشاهداتهم وذكر المواقف المتباينة والمعانات التي لاقوها، بينما هم يجولون في البلاد ويجوبون الأقطار.

ولهذا فإننا دون مبالغة نستطيع القول ان الرحلاّت بكافة صورها وأسبابها وأهدافها كانت أحد العمد الرئيسية في صرح الحضارة العربية الشامخ، لأن الرحلة الى جانب كونها وسيلة من وسائل جمع المعارف، فقد كانت أيضا فرصة لاكتشاف الآخر والأخذ عنه واثارة الشعوب والمنافسة والرّغبة في التفوق، والطّموح الى السّيادة، ولم يكن ذلك ممكنا والعربي في خيمته أو قصره أو حتى في معمله لا يبرحه.

فلولا الرحلة–وهي ارادة الله بالقطع–ما سمعنا عن البيروني أو المسعودي وابن خلدون ولا قرأنا عن الإدريسي والمقدسي ولولاه ما استمتعنا بكتابات ابن بطوطة وأسامة بن منقذ وياقوت الحموي والبغدادي وابن جبير، بل لولاها ما ظهر في سماء الأمة الإسلامية علماء كبار في كافة مجالات الأدب والعلم والفلسفة.[1]

خامسا: نشأة الرحلة وتطورها في الأدب العربي

عرف العرب الرحلة منذ العصر الجاهلي لأنهم اهل بداوة يتتبعون منابت الكلأ وموارد الماء، ولأنهم كانوا تجارا يضربون في الأرض بحثا عن المال والكسب وقد ذكر القرآن رحلتي قريش قال الله تعالى: «رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ »الاّ أن رحلات العرب في شبه الجزيرة العربية، وخارجها ثم تدون الا ما جاء نذرا في بعض الأشعار وتلميحا لا تصريحا ، وبعد الفتح الإسلامي انطلق العرب في الفتوحات خارج الجزيرة العربية فتعرفوا على أوطان أخرى، وشعوب لها عاداتها وتقاليدها واتسعت

[1]– فؤاد قنديل ،ادب الرحلة في التراث العربي،ط1–ط2،ص،67—68.

رقعة الدولة الإسلامية وامتدت طولاً وعرضا وأصبح[1] الخليفة بحاجة الى معلومات عن المسالك والممالك فأصبحت الرحلة فنًا أدبيا لصيقا بالتاريخ والجغرافيا.

ومن هنا يبرز التنوع في الرحلات لا بمستواها الأدبي فحسب بل بمنحاها التاريخي ، أو الجغرافي ، أو الاثنوجرافي مما جعلها تصاغ في قوالب يتآزر فيها الجانب التعليمي والمتعة الأدبية ،لقد انطلق أدب الرّحلة في القرن الثالث الهجري على يد "أبي العباس أحمد بن يعقوب المعروف باليعقوبي" صاحب "كتاب البلدان" ، وكذلك البلاذري في كتابه "فتوح البلدان" وفيه مسحة تاريخية غالبة على الجغرافيا وفي القرن الرابع الهجري يتحفنا المسعودي بكتابه "مروج الذهب" متحدثا كما قال عن (هيئة الأرض ومنها ... وأخبار غيضها ،وأهل النسل وتباين الأوطان).

وقد اهتم "المسعودي" بفن الرّحلة ، وخص عليه وأولى اهتمامًا كبيرًا للقالب الفني المديح ،ثم يأتي البيروني كحلقة وصل بين القرنيين الرابع والخامس من الهجرة ، وفي هذه الحقبة تطورت الرحلة[2] وأصبحت تميل للاستقلال عن الجغرافيا والتاريخ ،وبرزت كفن أدبي ،ثم تحول هذا النوع من المغرب الإسلامي وتقدم فيه للرّيادة خلال القرن السادس الهجري"الادريسي" من خلال كتابه "نزهة المشتاق في اختراق الآفاق"، ليأتي بعده "ابن جبير" وهي أول رحلة في الأدب العربي كفن شبه مستقل عن التاريخ والجغرافيا وقد خطت الرحلة بعده خطوات متقدمة خصوصا بعد ظهور الرحلة الأكثر شهرة في أدب الرحلات أي رحلة ابن بطوطة، التي عبر بها الأوطان ، والقارات وعرفت انتشارا واسعًا لما لهذه الرحلة من قيمة أدبية ومغامرات وحدود واسعة لشمولها، وذيوع واحتفاء عالمي بها[3].

سادسا: الرحلة عند العرب والغرب

واذا استثنينا رحلة "هوميروس" الى طروادة في القرن العاشر ورحلة هير ودون التي أفضت به الى نينيليف ثم الى ممفيس وطيبه في القرن الخامس قبل الميلاد ورحلات الحجاج النصاري بعد الميلاد الى

[1]- عبد الله كروم ، الرحلات بإقليم توات،ص42.
[2]- المرجع نفسه، ص43.
[3]- المرجع نفسه،ص 44.

بيت المقدس ، يمكن أن نقول أن المسلمين كانوا يحتكرون الرحلة والإستكشاف على المستوى العالمي قبل القرن الثالث عشر الذي شهد رحلة ماركوبولو ،حين أخذت طرق الرّحلة والإستكشاف تتقلص أمامهم ،فكان نطاق الرحلة عندهم يكاد لا يتجاوز الرحلة الى الأماكن المقدسة لأداء فريضة الحج، فأما الطرق البرية التي كان المسلمون ينقلون عبرها توابل الهند ومنتجات الشرق الأقصى الى أوروبا.

فقد تعطلت بعد اكتشاف طريق رأس الرّجاء الصّالح البحريّة، وأمّا الطرق البحريّة في المحيط الهندي فقد وقفت تحت سيطرة الأسطول البرتغالي في المرحلة الأولى بعد ما إستوى على القواعد التجارية على تواطئ إفريقيا الشرقية والهند وذلك قبل أن تزاحمها فيها الأساطيل الإسبانية والإنجليزية الهولندية، والأسوأ من ذلك أن المسلمين بعد ما ضاعت منهم البّحار وأفلت منهم زمام التجارة الدّولية واستكشاف المناطق المجهولة من العالم أصبحوا يجهلون حتى أخبار الإكتشافات الكبرى التي حققتها أساطيل الدّول البحريّة الأوروبية.

ولاسيما في غضون القرون "الخامس عشر والسادس عشر والسابع عشر". وهذا الجهل لم يكن قاصرا على العامة والمثقفين ، بل كان يشمل حتى كبار المؤرخين المؤرخ المصري الكبير "ابن اياس الحنفي" (1448-1525) الذي كان معاصر الاكتشاف أمريكا وغير ذلك من الاكتشافات التي كانت أصداؤها تهز العالم لم يبلغ خبرها الى عمله ولم يشير الى شيء منها في تاريخه المسمى "بدائع الزهور ووقائع الدّهور" والذي عني فيه بتسجيل الحوادث المهمة التي وقعت في عصره ولا في تاريخه المعنون "نزهة الأمم في العجائب والحكم" وهكذا فقد عاش هذا المؤرخ في أكبر عواصم[1] العالم الإسلامي ،القاهرة، نحو ثلاثين سنه بعد رحلة "كريستوف كولومبوس"[*] ولم يبلغ مسامعه إكتشاف أمريكا .

[1]- إسماعيل عربي،تاريخ الرحلة والاسكشاف في البر والبحر،1986،ص5.

*- كريستوف كلومبس: ولد في 31 أكتوبر 20 - 1451 مايو (1506 رحالة إيطالي، ينسب إليه اكتشافالعالم الجديد) أمريكا .(ولد في مدينة جنوة في إيطاليا ودرس الرياضيات والعلوم الطبيعية (وربما الفلك أيضا) في جامعة بافيا .عبر المحيط الأطلسي ووصل إلى الجزر الكاريبية في 12 أكتوبر1492 م لكن اكتشافه لأرض القارة الأمريكية الشمالية كان في رحلته الثانية عام 1498 م. بعض الآثار تدل على وجود اتصال بين القارة الأوروبية والأمريكيةحتى قبل اكتشاف كولومبوس لتلك الأرض بوقت طويل. من شخصيته وحي اسم بلد :كولومبيا.

والغريب أننا قد ورثنا قلة الاهتمام بالرحلة والإكتشاف في العالم وبما يرافقها من حمى السّطو على الموارد واحتلال البلدان واستعمارها وبذلك ظلت كتب الجغرافية والتاريخ خالية منها عبر القرون وظلت المكتبة العربية حتى يومنا هذا خالية من كتاب يعرف الناس بالطريقة التي اتسعت بها خريطة العالم وبالرّحلات التي اكتشفت خلالها قارتان من قارات المعمورة (أمريكا وأستراليا) ومع ذلك فقد ظل الناس يهتمون بكتب الرحلة وظل الرحالة ولاسيما من المغاربة الذين يقصدون الى الأماكن المقدسة يسجلون ملاحظاتهم في كتب تنال الحظوة ويقبل عليها جمهور القراء هنا وهناك في شغف ،ولكنه من الصّحيح أيضا أن الناس كانوا يقرأون كتب الرّحلات للتسلية بما يرويه الرّحالة من العجائب والغرائب وليس بدافع من الرّغبة في فهم خصائص المناطق التي يصفها او لإدراك أهميتها الجغرافية والاقتصادية ...الخ.

وكذلك تم التوسيع الأوروبي ولا سيما في القرن التاسع عشر، وفي كثير من الحالات على حساب المسلمين ونحن نجهل الإستكشاف والغزو والمخططات الإستعمارية حتى يقع في شباكها.

كم بلدا في افريقيا الشمالية والأراضي الواقعة خلف الصّحراء مثلا أدرك المغزى السياسي للرحلات الإستكشافية التي كانت تمولها بعض الدول الإستعمارية، قبل ان تقع الصّحراء الكبرى ومن بعدها المناطق الواقعة على شواطئها في قبضة الدول الإستعمارية فعلا؟

ولكن الرحلة الإستكشافية لا تنطوي دائما على مخطط سياسي للغزو والإستعمار لأنها كثيرا ما تكون فردية والدّوافع اليها ذات طابع تجاري في بداية الأمر بمعنى أن الرحالة لا يستهدف من وراء تجواله سوى إستكشاف الأسواق ومبادلة البضائع التي ينقلها من بلدة بمنتجات البلد الذي يمر به أو الذي ينهي اليه تجواله ولكنه جانبا يستغل رحلته لأغراض علمية ،فيسجل ما يعن له من الملاحظات الاقتصادية والسّياسية والطرائف الأدبية وما يصادفه من العجائب والغرائب في البلدان التي يحل بها ، وأدب الرّحلة العربية غني بالقصص والرّوايات التي تتصل بنشاط هذا النوع من الرّحالة والمستكشفين

الذين ربما كان أبرزهم ابن حوقل النصيبي في رحلات البر وسليمان التاجر وابن بحر المطوعي في رحلات البحر ،و"ابن بطوطة" الذي شملت روايته أسفار البر والبحر معا.

والرحلة الإستكشافية قد يكون الهدف منها أساسا توسيع نطاق المعلومات[1]عن المعمورة من الارض او الحصول على معلومات بشان منطقة معينة فيكلف الملك أو الخليفة من يعهد فيه الكفاءة الذهنية والقدرة على تحمل المشاق ومواجهة الاخطار في الأسفار، ويمده بالمال ولوازم السفر ويأمره بوضع تقرير في رحلته، وأبرز هذا النوع من الرحلات التي قام بها سلام الترجمان بأمر الخليفة الواثق بالله العباسي (1227-232هـ) ورحلة كريستوف كولومبس التي مولها وجهزها الملكان الكاثوليكيان "فردينا يد وإيزابيلا" (1492).

والرحلة والسفر قد تكون بدوافع من روح المغامرة وحب الإستطلاع والرغبة في درس أحوال الشعوب ومعرفتها، ومن هذا النوع الرحلة التي قام بها السائح الإنجليزي "شو" في بلدنا في القرن السابع عشر وخلف لنا وصفا رائعا له والرحلة التي قام بها السائح البندقي "ماركوبولو" في القرن الثالث عشر واخترق خلالها القارة الآسيوية من الغرب، إلى الشرق حتى اليابان.

والنوع الآخر من الرحلات وهو الشائع عندنا في المغرب وهو ذلك الذي تكون الدوافع فيه روحية ويستهدف الحج الى الأماكن المقدسة، على أن الحاج قد يتجاوز هذا اذا لم يتوقف في الشام ومصر، والعبدري وابن جبير والوزيع الغساني وابن بطوطة والحسين الورتلاني ، هم أشهر من يمثلون هذا النوع من الرحلة قلنا إن كتب الرحلة تقتني في الغالب للمتعة ولتزجية الوقت ،ولكن الناس يعودوا يبحثون عن التسلية في كتب الرحلة في عصرنا هذا الذي يوفر فيه التلفزيون والسينما والتنقل لقضاء العطلات الصيفية أكثر مما يحتاج اليه الانسان العادي من التسلية البرية.

[1]- إسماعيل العربي ،تاريخ الرحلة والاستكشاف ،نفس المرجع ،ص 6.

على أن رحلات القدماء مثل "كريستوف كولومب" و"فيس بوس" أمريكا والتي نشرت في طبعات جيدة منذ قرون ليس من الممكن الوصول اليها في الوقت الحاضر الاّ بشق الأنفس.

والحاجة الى قراءتها والاطلاع عليها منعدمة على كل حال، الا بالنسبة الى كتّاب يعالجون سيرهم ورحلاتهم في أعمال تاريخية كما هي حالتنا

ولهذا السبب، فنحن لم نر جدوى في ايراد هذه المصادر التناهية القدم والصعبة المنال وحين ننقل مباشرة بطريق الاقتباس، نكتفي بإيراد النص بين فاصلتين معقوفتين ونحن، على كل حال قد اقتصرنا على الحد الأدنى مما ينطوي على فائدة أو طرفة في هذا النقل الحرفي.

وفيما عدا ذلك فنحن نلخص الفقرات المهمة التي تساعد على فهم تقدم الرحلة، بحيث يكون خيطها متصلاً في ذهن القارئ.[1]

[1] - إسماعيل العربي،نفس المرجع،ص7.

تمهيد:

يصف حسين نصار الرّحلة الأدبية بقوله: "إن لم تكن الرّحلة الأدبية قصّة ولا رواية بالمعنى الدقيق فهي أخت شقيقة لها وبهذا يمكن القول إن نّص الرّحلة هو نّص فيه من الفن القصّصي ما يمكن معه أن يمثل جذور القصّة الأدبية، حيث اعتمد على عناصر أساسية واضحة، هي السرد والحوار، الوصف، البدايات، النهايات، التشويق والاشتمال على هدف وغاية وهو أيضا يمثل شكلا أكثر اتساعا بما يسمح من مساحة لعدد من المستويات اللغوية أن تظهر شعرا كانت أم نثرا لتنقل المهم والجديد والممتع والنافع.

الاّ أن هذه الحكايات الخيالية والغرائبية، وطقوس والسّحر والأساطير التي كانت ضربا من ضروب البناء الفني في آداب الرّحلات تضل بحاجة الى دراسة مستفيضة مستقلة لمعرفة الدواعي التي دفعت الرحالة لذكرها"[1].

أولا: التعريف بابن بطوطة وبرحلته:

1-ابن بطوطة: مولده ونشاته: هو مُحَمَّد بن عبد الله بن مُحَمَّد بن إبراهيم اللاواتي الطنجي، ولد بمدينة طنجة (المغرب الأقصى) يوم 17رجب 703هجرية، الموافق ليوم 24فبراير سنة 1304 ميلادية، ويعرف بابن بطوطة وتوفي سنة 1377م.

نشأ ابن بطوطة في اسرة تنسب الى قبيلة لواته معروفة بالعلم والدين والافتاء و، من ثم تلقّي تعليمه في علوم الدين والفقه واللغة، وحفظ القرآن إلى أن بلغ سن العشرين.

2-رحلات ابن بطوطة:

قرر إبن بطوطة أداء فريضة الحجّ فخرج من مدينة طنجة يوم: الخميس 2رجب725هجرية الموافق لسنة 1322ميلادية.

[1]- نوال عبد الرحمان الشوابكة: ادب الرحلات الاندلسية والمغربية حتى نهاية ق19 هـ، دار المأمون للنشر والتوزيع ط 1، 1428هـ/2008م ص(314-315).

الرحلة الاولى:

إتجه الى مدينة تلمسان (الجزائر) التي بقي بها ثلاثة أيام فقط ثم واصل رحلته في رفقة رسولين من تونس إلى ابن تاشفين عبد الرحمن ابن موسى، وهكذا بدأت رحلة ابن بطوطة من اقصى الشمال الغربي (من طنجة)، مخترقا الساحل الشمالي للمغرب العربي(المغرب، الجزائر، تونس وليبيا) الى أن وصل الإسكندرية(مصر) حيث إنطلقت منها رحلته الفعلية التي انطلقت التي سجّل أحداثها، إذ زار بقية القرى والمدن المصرية، وهو مالم يفعله عندما مرّ بالجزائر، وتونس، وليبيا، ثم رحل إلى بلاد الشّام، فالحجاز، واليمن، والصّومال والبحرين ،العراق وتركيا، والقسطنطينية(قبل فتح الأتراك لها)وبلاد البلغار، ثم بلاد القزم، والهند، فالصّين كما زار جزر المالديف وسيلان وبلاد البنغال وإندونيسيا لجاوة وسومطرة ثم عاد إلى الصّين مارا بسومطرة ومليبار، ثم عمان وبلاد الفرس فالعراق(بغداد)وتدمر، ثم بلاد الشام مرة أخرى إلى أن وصل المغرب مُنهياُ رحلته الأولى[1].

الرحلة الثانية:(1305م–1351م):

لم يمكث ابن بطوطة في فاس حتى وجد لنفسه نزوعا إلى السفر حيث عاوده الشوق، والحنين إلى الإرتحال فقام برحلته الثانية سنة(751هـ–1350م).[2] حيث سافر الى بلاد الأندلس التي كانت تقلصت خلال ذلك الوقت، وانحصرت في مملكة غرناطة التي وصلها بعد زيارة قبر والدته في طنجة، وقد اعطانا ابن بطوطة صورة واضحة للمنشآت الاجتماعية التي وجدت في حديثه عن غرناطة في ذلك الوقت لكنه لم يمكث في هذه البلاد طويلا فعاد الى مدينة فاس.[3]

[1]- مُحَّد السويدي: رحلة ابن بطوطة، تحفة النضار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار الجزء الأول ص1.

[2]- احمد رمضان احمد: الرحلة والرحالة المسلمون، ص381.

[3]- المرجع نفسه، ص381.

الرحلة الثالثة:(1350م–1351م):

عزم ابن بطوطة بعد عودته من الأندلس على القيام بزيارة بلاد المسلمين في السودان الغربية متجها الى سجلماسة[1]، وانضم فيها الى جماعة من التجار وبعدها سافر الى مالي ومن مالي الى تبكتوا إلى بارادامتو، وقد انتهى المطاف بابن بطوطة في رحلته الى السودان الغربي عند مدينة تكده وهاكار، وبعدها خرج فوصل الى فاس وأمضى بقية حياته.[2]

وأعجب السلطان أبو عنان بما يرويه من طرائف الأخبار والأسفار حيث كان يقص على الناس مشاهد، سمع والتقى، وجرب، والجمهور في دهشة وعجب مما يسمعون والحكايات لا تنقضي والناس لا يفتأون يقصدونه طالبين المزيد من ذلك، صدرت إرادة السلطان الى الرّحالة لأن يملي ما شاهده في رحلته من الأمصار، وما علق بحفظه من نوادر الأخيار ويذكر من لقيه من ملوك الأقطار وعلمائها الاخيار وأوليائها الأبرار.[3]

وبذلك أملى ابن بطوطة أخبار رحلته المشهورة بـ: تحفة النضار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار" ويذكر ان ابن بطوطة أملى رحلته من ذاكرته، بعد أن فقد كثيرا ممّا سجله أبان سفره وترحاله، وقد وصف إبن جزي طريقه تأليف الكتاب في مقدمته وإنتهى من ذلك سنة 756م.[4]

---

[1]- مُحَمَّد ترحيني: ابن بطوطة، دراسات عربية، ص83.

[2]- نقولا زيادة: الجغرافية والرحلات عند العرب ص189.

[3]- **المرجع نفسه، ص139.**

[4]- مُحَمَّد حرب فروزات: شتاء وربيع 1984، (رحلة ابن بطوطة)، الآداب الأجنبية، (فصلية)، اتحاد كتاب العرب، دمشق، العدد38-39،ص50.

ثانيا: دوافع وأسباب الرحلة:

تتعدد الدوافع التي تحمس الإنسان للرّحلات وتختلف من شخص الى آخر، ومن قوم، لقوم ومن عهد لعهد، إلا أنها في الاغلب لا تخرج عن أن تكون:

1-دوافع دينية:

كان يرتحل للحج الى الأماكن المقدسة تلبية لنداء الرّحمن، وتوبة وتطهيرا للنفس من دنس لذنوب، وعهد للسير على الصّراط المستقيم، وأملا في المغفرة ومن قبيل ذلك التبشير بالدين أو زيارة المقابر.

2-دوافع علمية او تعليمية:

بغرض الإستزادة من العلم في منطقة أخرى من العالم ذاع صيت أبناءها في مجالات العلوم كالفقه والطّب والهندسة والعمارة وغيرها، ونذكر كتب الحديث والسير أن من الفقهاء والعلماء من كان يقطع القفار ويعبر الأنهار طلبا لحديث نبوي سمع به أو لمجرد التحقق من كلمة فيه، وقد فعل ذلك عبد الله بن عباس والغزالي وابن منده والأحنف العبكري الشاعر ولا نملك لمثل هؤلاء حصرًا، فما أكثرهم، ومن قبيل ذلك أيضًا رحلات البحوث العلمية والكشوف الجغرافيّة.

3-دوافع سياسية:

كالوفود والشعارات التي يبعث بها الملوك والحكام الى ملوك وحكام الدول الأخرى، لتبادل الرأي وتوطيد العلاقات أو مناقشة شؤون الحرب والسّلام أو تمهيدا لفتح أو غزو.

4-دوافع سياحية وثقافية:

تصدر عن رغبة في الطّواف نفسه والسّفر لذاته وحب التّنقل وتغير الأجواء وتجديد الدماء بالمشاهدة والمغامرة ومعرفة الجديد من خلق الطّبيعة والبشر واكتساب الخبرة بالمسالك والطّبائع، وقد تكون لتعرف المعالم الشهيرة كالأثار والمنارات والأبراج أو الكهوف والغرائب والعجائب.

5-دوافع اقتصادية:

للتجارة وتبادل السلع أو لفتح أسواق جديدة لمنتجات محلية أو لجلب سلع تتوافر في بلاد أخرى وتندر في بلد المسافر، وقد يكون هربا من الغلاء وسعيا وراء الرخص واليسر والوفرة أو للعمل.

6-دوافع صحية: كالسفر للعلاج او الاستشفاء، أو اراحة النفس من ألوان العناء وتخليصها من الكدر كالإرتحال الى المناطق الرّيفية ونحوها، وقد يكون هربا من وباء أو طاعون أو تلوث.

7-دوافع أخرى:

قد لانعدم ان نجد أسبابا أخرى للارتحال، كالسخط على الأحوال وضيق العيش او الهروب من عقوبة.[1]

ثالثا: أنواع الرحلات:

الرحلة الدينية: من أشهر هذا النوع رحلاّت الحجّ والعمرة اللذين كانا من الدوافع القوية، التي أدت بالمسلمين الى الرّحلة الى الحجاز، وهو سفر يتمناه كل انسان مسلم، وقد إكتسب الرّحلة الى الحج قيمة مقدسة، وترددت في كثير من كتب الرّحلة العربية وفي مذكرات المؤلفين والأعلام.

ونضيف الى الحج زيارة مواقع أخرى منها: زيارة قبر الرّسول عليه الصّلاة والسّلام بالمدينة المنورة، وزيارة أضرحه الأنبياء والأولياء الصالحين، والحج إلى بيت المقدس بالنسبة للمسحيّين والرّحلة لنشر الدين وتعليم الإسلام، والملاحّظ أن هناك تداخلا بين الغرضين العلمي والديني في أكثر الرّحلات.

ومن أشهر رحلات الحج رحلة ابن حبير ومُحَمَّد العبدري وابن بطوطة وغيرهم كثير ساهموا في تطوير فن الرّحلات أسلوبا، ومضمونا، وسجلوا العديد من الاخبار والمعارف الخاصة بالبلدان العربية والإسلامية وشعوبها.[2]

[1]- فؤاد قنديل: ادب الرحلة من التراث العربي، ص19-20.

[2]- د سميرة انساعد: الرحلة الى المشرق في الادب الجزائري، ص27-28.

ويبدو واضحًا أن لبيت المقدس ومكة المكّرمة أثرًا كبيرًا في نفوس جميع الطوائف حيث يصف ابن بطوطة ملكًا واهبًا في مدينة القسطنطينية وقد أخذ بيد ابن بطوطة حين علم بأنه زار بيت المقدس وقال له: أنا أصافح اليد التي دخلت بيت المقدس والرجل التي مشت داخل الصّخرة، والكنيسة العظمى التي تسمى قيامة وبيت لحم ويقول ابن بطوطة: وجعل يده على قدمي ومسح بها وجهه فعجبت من اعتقادهم فيمن دخل بتلك المواضع من غير ملتهم ويذكر ابن بطوطة أن الكنيسة المعظمة بالقدس يحجها النّصارى، وهي التي يعتقدون أن قبر عيسى عليه السلام بها.

أمّا ركب الحجاج الذي سافر فيه ابن بطوطة، فيصفه بقوله: وخرجنا بعد طواف الوداع إلى بطن مر والمراد مر الظهران، في جمع من العراقيين والخراسانيين، والفارسيين، والأعاجم لا يحصى عددهم، تموج بهم الأرض موجا...

ولعل في ذلك إشارة الى أن الحج الى الديار المقدسة كان بمثابة رابط روحي عميق وكانت فريضة الحج دائما عاملا قويا من عوامل خلق حياة مشتركة في الإسلام وعاملا مؤكدا على أن جمع تلك الشعوب وعناصرها المختلفة هو وحدة الثقافة والعقيدة.[1]

ويروي الورثيلاني أنه تمكن من الدخول الى مربع بيت الكعبة رغم استحيائه وتردده بعدما حثه أحد رفقائه الحاج أبو عزة المراكشي وبمعية امير الحج المصري إبراهيم أبو شنب، يقول الورثيلاني" فدخلت البيت وعلاني من الهيبة ما الله به عالم فركعت به ركعتين لناحية الباب مواجهة غافلاً عن السنة بأن أجعله خلاف ظهري لما علاني من الخجل، والدهش والوجل، ودعوت بما أمكنني وحضر لي من الدعوات معمما ومخصصا أهل المحبة، والقرابات ولم تطل مدة فتحه وانما يفتحونه هذا اليوم لتعليق الكسوة الجديدة وإزالة العتيقة.

"ويسهب الورثلاني في ذكر مناسك الحج، وازدحام الحجاج في الأسواق، ومن ذلك وصفه المشوق والبهيج لأحد الليالي بمعنى وهي الليلة الثانية على النحو التالي:" ولما كانت الليلة الثانية من ليالي منى بالغ أهل مصر، وأهل الشام في ايقاد المصابيح، واتخاذ المصّانع منها، وصور الأشجار والأخبية وإكثار

[1]- د نوال عبد الرحمن شوابكة، ادب الرحلات الاندلسية والمغربية، ص201.

الرمي بالمدافع والبنادق والمحارق المرتفعة في الجوّ وفي ذلك نزهة للأبصار، وتسلية للأفكار ، ومجال للاستعاضة والأذكار، والقبول والانكار، فنزل جميع أصناف العباد وحشر اليه عمار البلاد، فهو أجمل الأندية ومباينة أحسن الأبنية تشرق في النهار فساطيطه المؤنقة وبالليل مصابيحه المشرقة.[1]

وأمّا الوقوف بعرفة فجليل وأكبر من أن يوصف" فلو شاهدت تلك الحال وما عليه الناس في جبل عرفات ووقوفهم بتلك العرصات لهالك ذلك المشهد الذي هال أمره، وعجز عن وصفه زيد البيان وعمره، إذا ترى الملوك في مقام الافتقار والذلة والفقراء في محل الاضطرار والقلة والجميع يرغبون في المغرفة من الرحمن ويطلبون الرحمة والعفو الرحيم الحنان المنان، ولقد أنشد الورثيلاني في ذلك قصيدة من اثنين وأربعين بيتا نذكر منها:

وكم خاضع كم خاشع متذلل وكم سائل مدت الى الله.

كفاه وساوى عزيز في الوقوف ذليلنا فكم ثوب ذل في الوقوف.[2]

الرحلة العلمية:

كان الدارس إذا ما تم تعلمه في بلاده يسافر بعيدا، ويغترب طويلا، وينزل بإحدى عواصم العالم العربي، ويجالس من إشتهر من علماء العصر، ويحضر دروسهم، ويسعى في إجازاتهم، يقيد ما حدث، ويلخص ما إقتطف، وتصبح هذه التقاليد هيكل كتاب يعرف فيما بعد بالرّحلة في طلب العلم.

وهذا ما فعله مُحَّد المكي الدرعي الناصري (أواسط القرن الثامن عشر) صاحب " الرّحلة المراكشية". وقبله ابن زاكور الفاسي (المتوفي سنة1708/1120) الذي قضى شهورا بالجزائر العاصمة يأخذ عن علمائها ويتضلع في الفقه والمنطق والتوحيد فصور هذه الإقامة الدّراسيّة في "نشر أزاهير البساتين".

[1]- سيدي الحسين بن مُحَّد الورثيلاني: التواصل القيمي في الرحلة الورثيلانية نزهة الأنظار في فصل علم التاريخي والأخبار، ص63.
[2]- نفس المرجع، ص63.

والرحلة العلمية، وأن أضحت بوصف البلدان والمجتمع، فإنها تفننت في الحديث عن الحياة الفكرية والنشاط الثقافي وما هذا بالجانب الذي يستهان به.[1]

تنوعت رحلات البغدادي وتعددت أغراضها، ما بين رحلات سياحية ومشاهدات، ورحلات تعارف ومحاورة ورحلات علمية ورحلات سياسية للقاء الملوك والوزراء، ولست مبالغا إذا إعتبرته في ميزان هذه الدّراسة رحالةً مثاليا تتحقق فيه كرسمات الرّحالة الذي أغرم بالسفر منذ الصّبا الباكر بحثًا عن المعرفة بكافة أشكالها وصورها... يجيد التأمل، دقيق الملاحظة تؤرقه شهوة التطلع وحب العلم، سديد النظر مولع بالجدل والحوار الذي ينتج الأفكار ويستنفر الهمم، الاّ أن حرصه على التعليم والتثقيف والتوجيه والإفادة ورغبته في أن يستقر بعض الوقت ليتفرغ للكتابة والتأليف قد حد من رحلاته، وضيق من أسفاره، واقعده عن السياحة في مشارق الأرض ومغارها، وهو أمر لا نأسف عليه، لكن الذي يحق لنا أن نأسف عليه حقا أنه لم يسجل عن البلاد التي طوف بها، والأماكن التي زارها شيئا الا عن مصر فقط التي كان حضها" الإفادة والإعتبار.[2]

وهذه الرحلة تتعلق بسبب أو بآخر بالنّاحية الدينية، لأن الإسلام حضَّ على طلب العلم، وفرضه على كل مسلم ومسلمة، لذا فقد اهتم طلبة العلم منذ القديم فقطعوا الصّحاري والقفار بحثا عن فائدة أو سماعا لحديث، أو رجاء لقاء علم حتى أصبحت الرحلة فيما بعد شرطا لازما للعالم عمومًا ولعالم الحديث خصوصًا.

فقد روى عن الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود انه قال:" ما أنزِلَت آية الاّ وأنا أعلم فيما أنزلتْ ولو أني أعلم أن أحدا أعلم بكتاب الله مني تبلغه الإبل والمطايا لأتيته."

وروي عن الشَعبي ت(103هـ،721م) قوله: «لو أن رجلاً سافر من أقصى الشام الى أقصى اليمن فحفظ كلمة تنفعه فيما يستقبله من عمره رأيت أن سفره لا يضيعُ"

[1]- مولاي بالحميسي: الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر1981،ص10.
[2]- سميرة انساعد: الرحلة الى المشرق في الادب الجزائري، دار الهدى ،2009، ص25.

وكثيرا ما كان الغرضان يمتزجان معًا فتكون الرحلة جامعة الأمرين معًا الحج وطلب العلم.[1]

بالإضافة إلى ياقوت الحموي: هو عبد الله ياقوت بن عبد الله شهاب الحموي البغدادي، ونسبته إلى حماه ترجع الى أن سيده كان من أهل حماه، وأن أقام في بغداد لأجل التجارة.

هو أحد الوجوه المضيئة في تاريخ العرب، كان رحالة وعالما، جمع بين معارف كثيرة وأنجز في علوم عديدة منها: الجغرافيا والأدب وعلوم الشريعة واللّغة العربية. صنف كتبًا عدة أهمها كتابان هما:" معجم الأدباء" و"معجم البلدان" القاموس الجغرافي الأشهر، قال عنه العالم الإيطالي "الدومييلي" في كتابه" العلم عند العرب وأثره في تطور العلم العالمي"

ويقول عنه سنكوفسكي في عبارة أقل صخبًا وأكثر دقة:

«أنه كاتب مدقق مجتهد، ندين له بحفظ أثار قيمة في تاريخ وجغرافيا العصور الوسطى وهو قد أبدى الكثير من الغيرة والحماس في دراسة الأوضاع الجغرافية والأثنوجرافية والسّياسية لعصره».[2]

يقول الدكتور احسان عباس في دراسته لسيرة ياقوت التي ذيل بها تحقيقه لمعجم الأدباء: «تدل الكتب التي وصلتنا من مؤلفات ياقوت على أنه كان يدين بمبادئ في التأليف يحرص عليها، ومن أهمها:

1-الاستقصاء في الاطلاع: ولذلك كانت أهم كتبه تمثل مشروعات طويلة المدى، لا يمكن إنجازها في وقت محدد، بل هي "موضوعات مفتوحة" تتحمل الزيادة على مر السنين.

2-الابتعاد عن الأسطورية وما يأبى العقل قبوله، ومع ذلك فانه يقر أنه أورد نماذج وأخبارا بعيدة عن العادات المألوفة، تنفر منها الطباع السليمة، كتبها وهو مرتاب بها نافر عنها، وانما دونها حرصا على احراز الفوائد، اذ هي مفيدة ان كانت حقا، وامتحان لسلامة التفكير ان كان باطلاً.

[1]- علي إبراهيم كردي: ادب الرّحل في المغرب والاندلس، دمشق الهيئة العامة السورية، الطبعة الأولى 2013م، ص12.

[2]- فؤاد قنديل، ادب الرحلات في التراث العربي، ط1،ط2،ص434.

3-الصّدق في النقل والرّواية دون تغيير أو ايجاز مخل وهذا يعني أنه غير ملوم اذا نقل أحيانا ما لا يقبله العقل، شرط أن ينوه بذلك.

4-الاعتماد على الثقة في ناقل الرّواية، ومبلغ تحرّيه في النقل فهو يقبل حكاية رواها السمعاني ثم يقول: وهذه حكاية على ما يرى من الاستحالة، وقد أوردتها أنا لثقة موردها وتحريه في الرواية، فان صحت فقد فزت بحظ من العجب، والاّ فأجعلها كالسمر تستمتع به.[1]

5-التنويع في مادة الكتاب بين الحكمة والخبر والشعر والنثر والهزل والجد.

وعلى هذا الأساس يمكن ان يقال ان منهج ياقوت في التأليف كان يرمي الى اذكاء الشعور بالرضى عن نفسه في نفسه، او بما يتجاوز الرضى الى نوع من السعادة الذاتية التي يغذيها لديه حب الظهور..."[2]

الرحلة التأريخية:

التأريخية: علم يعنى بالمجتمع البشري من حيث تطوره عبر العصور. ومزية المؤرخ الأولى تحري الحقيقة على ضوء دراسة الوقائع والأحداث وإستجلاء أسبابها، فتتضح على يديه سيرة الشعوب في رقيها او تأخرها.

والتاريخ مظهر من مظاهر التحضر، فهو من البدائيين اساطير وقصص وعجائب ومع ارتقاء العقول على تشده الحقيقة.

إن الإنسان في أحقابه الأولى، إنصرف إلى ضروريات الحياة –وذلك بطبيعة النشوء البشري– فلا هو عرف الكتابة، ليفكر في تدوين تاريخه، ولا إستدعت سذاجة أحواله تدوين ذلك التاريخ[3]

[1]- أبو عبد الله ياقوت بن ع الله الرومي الحموي: معجم الادباء او ارشاد الاديب الى معرفة الاديب، عبد الفتاح الادريسي، الناشر تين وزيتون للنشر والتوزيع، الجزء الأول، 2014، ص9.

[2]- نفس المرجع، ص 10.

[3]- جورج غريب: ادب الرحلة تاريخه واعلامه، دار الثقافة بيروت–لبنان، ط3، 1979، ص5.

أقول التاريخ في اللّغة هو تعريف الوقت وفي (العرف والاصطلاح) هو تعين وقت لينسب إليه زمان مطلقا سواء كان قد مضى أو كان حاضرًا أو سياتي. وقيل التاريخ تعريف الوقت.

بإسناده إلى أول حدوث امر شائع كظهور ملة أو وقوع حادثة هائلة من طوفان أو زلزلة عظيمة ونحوهما من الآيات السماوية والعلامات الأرضية، وقيل التاريخ مدة معلومة بين حدوث أمر ظاهر وبين أوقات حوادث أخرى.[1]

إن التاريخ فيما نرى هو: «السعي لإدراك الماضي البشري".[2]

وغاية التاريخ هي إدراك الماضي كما كان، لا كما نتوهم أنه كان وكذلك ليس هو تصوير الماضي كما يجب أن يكون او كما نريده أن يكون.

ومن بين أعلام هذه الرحلة نذكر أهمها:

المسعودي: علي بن الحسين بن علي المسعودي ...علامة، مؤرخ، رحالة، أدرك أواخر القرن الثالث الهجري وبدايات القرن الرابع الهجري وترك مؤلفات نفيسة في مجال التاريخ، وكانت وفاته سنة346هـ/957هـ.[3]

يعتبر المسعودي في مقدمة المؤرخين العرب المسلمين، نهج جديدا ميزه عن غيره من المؤرخين، وأنشأ مدرسة جديدة في التاريخ إحتذاها كثيرا مما عاشوا بعده، وخاصة إبن خلدون، ومزج المسعودي بين الدراسات التاريخية والجغرافية، وفتح افاقا جديدة في الدراسات الاجتماعية والاقتصادية والدينية، واهتم بمعالم الحضارات المختلفة ولزم المسعودي الطريقة الموضوعية، وأصبحت الشعوب والملوك والأسرات والحلفاء محاور لدراسته.[4]

[1]- صالح احمد العلي: علم التاريخ عند المسلمين، مؤسسة الرسالة، الطبعة ال ثانية1403 هـ/1983م، ص

[2]- قسطنطين زريق: نحن والتاريخ، دار العلم للملايين، بيروت،ط 1 ،1959،ص 49.

[3]- كمال بن محمد الريامي: مشاهير الرحالة العرب، الطبعة الأولى 1434هـ،2013م، ص 25.

[4]- علي حسن الخربوطلي: المسعودي، دار المعارف بمصر 1968م، ص 44.

تميز المسعودي عن غيره من المؤرخين بما نسميه اليوم بالعقلية التاريخية والحاسة التاريخية وظهرت عقلية المسعودي التاريخية واضحة في كتاب (مروج الذهب) و(التنبيه والإشراف)، فقد اهتم بالمنظور الزمني وربط بين الاحداث التاريخية، وعقد كثيرا من المقارنات. أما الحاسة التاريخية، فقد اكتسبها المسعودي في رحلاته العديدة الى بلاد تختلف تماما في معالمها وحضاراتها، ولما كان هدفه من الرحلات البحث والإستقصاء، فقد إهتم بأن ينظر إلى كل ما يراه بعين النقد والاختبار والتحليل ووازن بين مشاهداته وبين ما سمعه من قبله أو قراه في الكتب.[1]

والمسعودي حين يتحدث عن رحلاته يتبع موضوعية إقليمية فيقسم دراسته إلى موضوعات مستقله يتحدث كل موضوع عن إقليم معين فلا يتبع المسعودي برغم أنه عاش بعده بأربعمائة سنة تقريبا.

وتأثر بن حوقل والبيروني برحلات المسعودي، ونهجا منهجه في رحلاته وتدوين أخبارها،

ولكن المسعودي تفوق عليهما، فقد كانت معلوماته أكثر دقة، ويعتز المسعودي دائما برحلاته وبالجهود التي بذلها خلالها، ولذا فهو يشيد بها دائما.[2]

ومما يدل حقا على مدى ما وصلّ إليه المسعودي من إتساع في الأفق وتقدم في التفكير سبق به أقرانه من معاصريه، بل والأجيال التي تلته من المؤرخين، هو ما دونه في كتابه "مروج الذهب" من وصفٍ بما قام به المصريون من أعمال البحث في التنقيب عن الأثار، وكشفهم اقبية مملوءة بالهياكل والموميات، وما كان لذلك من أثر في تنبيه الأذهان الى أهمية البحث عن الأثار المصرية القديمة.

ولعل خير ما نختم به الحديث عن المسعودي ولرحلاته قوله: ولكل إقليم يقتصر علمه على أهله، وليس من لزم جهة وطنه، وقنع بما نما اليه من الأخبار عن اقليمه، كمن قسم عمره على قطع

[1]- مرجع نفسه، ص47.
[2]- مرجع نفسه، ص49.

الامصار، ووزع أيامه بين تقاذف الأسفار وإستخراج كل دقيق من معدنه، وأثارة كل نفيس من مكمنه.[1]

كما تجدر الإشارة الى أن ابن خلدون هو: من اشهر الرحالة العرب الذين عرفهم التاريخ وهو:

ابن خلدون بن مُحَمَّد بن مُحَمَّد بن خلدون ابن زيد علامة ومؤرخ، أديب رحالة، شاعر، مفكر، فيلسوف، واضع ومؤسس علم الإجتماع والعمران، ولأجل هذا العلم طارت شهرته كل مطار وعرفه الشرق والغرب كعظيم من عظماء الإنسانية ولد سنة732هـ/1332م.

يقول:" فإن فن التاريخ من الفنون التي تتداوله الأمم والأجيال وتشد إليه الركائب والرحال وتسموا الى معرفته السوقة والأغفال وتنافس فيه الملوك والأقبال وتتساوى في فهمه العلماء والجهال إذ هو في ظاهره لا يزيد على أخبار عن الأيام والدول والسوابق من القرون الأولى تنمو فيها الاقوال وتضرب فيها الامثال وتطرف بها الأندية إذا غصّها الإحتفال وتؤدي لنا شان الخليقة كيف تقلبت بها الأحوال وإتسع للدول فيها النطاق والمجال، وعمروا الأرض حتى نادى بهم الإرتحال وحان منهم الزوال وفي باطنه نظر وتحقيق وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق، فهو لذلك أصيل في الحكمة عريق، وجدير بأن يعد في علومها وخليق.[2]

أعلم أن فن التاريخ فن عزيز المذهب جم الفوائد شريف الغاية إذ هو يوقفنا على أحوال الماضين من الأمم في اخلاقهم، والانبياء في سيرهم، والملوك في دولهم وسياساتهم، حتى تتم فائدة الاقتداء في ذلك لمن يَرُومُهُ في أحوال الدين والدنيا فهو محتاج إلى مآخذ متعددة ومعارف متنوعة وحسن نظر وتثبت يفيضان بصاحبهما الى الحق وينكبان به عن المزلات والمغالط لأن الأخبار إذا اعتمد فيها على مجرد النقل ولم تحكم أصول العادة وقواعد السياسية وطبيعة العمران والأحوال في الاجتماع الإنساني ولا قيس الغائب منها بالشاهد والحاضر بالذاهب فربما لم يؤمن فيها من العثور ومزلة القدم والحيد عن جادة الصدق وكثيرا ما وقع للمؤرخين والمفسرين وايمَّة النقل من المغالط في

[1]- احمد رمضان احمد: الرحلة والرحالة المسلمون، دار البيان العربي، بدون طبعة، ص115.

[2]- عبد الرحمان ابن خلدون: مقدمة ابن خلدون، دار احياء التراث العربي بيروت-لبنان، الجزء الأول ص3-4.

الحكايات والوقائع لإعتمادهم فيها على مجرد النقل غثّا أو سمينا ولم يعرضوها على أصولها ولا قاسوها بأشباهها ولا سَبُروهَا بمعيار الحكمة. [1]

وينظر لتاريخ على أنه فرع من الحكمة أي الفلسفة، وأن باطنه نظر وتحقيق وتعليل ومبادئها وعلم بكيفيات الوقائع واسبابها.[2]

الرحلة الأدبية:(رسالة الغفران لابي العلاء المعري)

سجلت الرحلة الأدبية في كتابات الادباء بشكل مفارق كرسالة لأنواع الرّحلات الأخرى المعهودة، مادتها الخيال الذي خرج بها من العالم الواقعي المشهود الى العالم الافتراضي المتخيل، الغفران لأبي العلاّء المعري والتوابع والزوابع لإبن شهيد، ومنامات الوهراني، والسندباد البحري، وقد أثارت تسمية: أدب الرّحلة أوجه إختلاف ين مؤيد ومعارض حيث " توقف البعض عند مصطلح أدب الرحلة وأبدى شيئا من التحفظ حول المصّطلح. متسائلا عن سبب التسمية، دافعا في وجوه المؤيدين مادة الرحلة التي تحتوي معلومات جغرافية وإقتصادية وعمرانية وسياسية واجتماعية، ومؤكدا على ان لغة الرحلة في الأغلب نثرية لا تتجاوز الوصف والحكي، وقد تخلوا من بلاغة أو ابداع لغوي، بل تقترب من لغة الحديث اليومية.[3]

اما عن المؤيدين له، فـ" يبدو ان مصطلح ادب الرحلات، هو المصطلح الأكثر ارتباطا بفن الرحلة والأكثر توظيفا عند دارسي هذا الفن من الباحثين والمهتمين، والأكثر انتشارا في مؤلفاتهم.

وكغيره من المصطلحات لم يلق هذا المصّطلح الإجماع حول حيثياته، أو في تعريفه إلا إن الإتفاق حاصل أن صفة الأدبية هي الأكثر تجليا في الإنتاج الذي يصنف ضمن دائرة هذا المصطلح، الذي كما نلاحظ أن تركيبه يتكون من كلمتين: أولهما "أدب" وثانيهما " رحلة" والمقصود بالأدب

[1]- عبد الرحمان ابن خلدون، مرجع سبق ذكره، ص9.

[2]- احمد رمضان احمد ، الرحلة والرحالة المسلمون، مرجع سابق، ص 232.

[3]- مُحَمَّد بن سعود الحمد، موسوعات الرحلات ،1428هـ-2007م، ط1، ص 23.

هنا هو ذلك الإنتاج الذي ينقل الواقع، ويصف المشاهد ويتكئ على طريقة فنية في الكتابة، ممزوجة بذات صاحبها بثقافته خاضعة لفكرة، متماشية مع وجهة نظره متوافقة مع معتقده ودينه.

أمّا الرحلة فليس المقصود بها الرحلة كفعل وحركة إنتقال، وإنمّا الرحلة التي من خلالها يتم تلفيظ الفعل والحركة ونقلهما الى كتابة، بشرط أن تكون الرحلة واقعية وفعلا جرت أحداثها على أرض الواقع " فإن الرّحلات إذا هي ما يمكن أن يوصف بأدب الرحلة الواقعية، وهي الرحلة التي يقوم بها رحالة الى بلد من بلاد العالم، ويدون وصفا لها، يسجل فيه مشاهداته وانطباعاته، بدرجة من الدقة والصّدق وجمال الأسلوب.[1]

أدرك المهتمين بقيمة الرحلة وأدبيتها، وإرتبط ذلك الإدراك بظهور نماذج جيدة، ذات قيمة امتاعية وتعليمية دون الفصل بينها.

" والملاحظ ان هذا الإدراك لم يتم الإجماع عليه....الشئ الكثير.[2]

إن رسالة الغفران التي ألفها أبو العلاء المعري(363-448هـ) في غمر عزلته لمن الأثار الأدبية النفيسة التي لا يمكن درسها بمعزل عن مبادئ كاتبها الفكرية وعالمه الخيالي وتجربته الذاتية ... بل إن الرحلة وهي قسم إمتد على مساحة واسعة من الرسالة، قد كانت بالنسبة إليه أشبه بالقلعة التي تحصن بأسوارها من إغراءات الحياة وفي رأينا لم يكن في أي من مؤلفاته أبدع مما كان في "الرحلة الغفرانية"، لأن القهر الذي إحتفاه والحرمان الذي هصر روحه، والشك الذي أقض مضجعه، والحلم الذي أمل فيه... لأن كل ذلك تشكل لوحات فنية يلمس القارئ، المشاهد في خطوطها، وظلالها ونتوءاتها، وأصباغها رعشة روح هزته، وخفقة قلب رجته وحيرة عقل المت به، فقد التزم أبو العلاء في الرحلة الغفرانية بأسلوب خالص الإتحاد عماده الصورة الخيالية، ويستمدها من مخزونه الثقافي(الأدب والديني) فيكفيها مع السخرية التي تحيزها صبغة، إبلاغيه النقد مجموع المسائل العقائدية، والماورائية والسياسية

[1]- انجيل بطرس: الرحلات في الادب الإنجليزي، مجلة الهلال، القاهرة، ع7،سنة1975م،ص23.

[2]- عبد الرزاق موافي، ادب الرحلات عند العرب،1410هـ/1990م كلية الاداب جامعة القاهرة، ص209.

التي كانت تؤرقه وتؤرق مثقفي عصره المختل .وعمد أبو العلاء أي كل هذه العقاقير الأدبية والفكرية فصبها في وعاء فني تتنازعه مقومات جنسين ادبيين هما القصة والرسالة.[1]

الخصائص والسمات المكونة للرحلة الخيالية

أ: بنية الزمن: فإن الرحلة تبدو خيالية من العنصر الزمني إذا ليس لنا في رحلة الغفران، ما يحدد مواقع الأحداث من الزمان لأن الأحداث تجرى في عالم متحرر من الزمن وخارج عن كل تحديد ولا غرابة، في ذلك فنحن في الرحلة أمام زمن سرمدي، وإضافة الى هذين الزمنين يمكن أن نضيف زمنا ثالثا، هو زمن التلفظ إذا يحصل التطابق بين زمن السرد وزمن الحدث، أو بين الرواية والواقع بما يعني أن الحديث، يقع في زمن وقوع الأفعال والقارئ حينها يعيش بالمشاهدة ما يقع أمامه في زمن واحد.[2]

الزمان ليس محددا: لأن أحداث القصة تجرى في عالم الآخرة فمن الطبيعي أن الزمان هنا أطول من الزمان في الدنيا بكثير، على سبيل المثال يتحدث إبن القارح عن مدة وقوفه في المحشر هكذا:" وكان مقامي في الموقف مدة ستة أشهر من شهور العاجلة"[3]

ب/الخيال: قدمت قراءات متنوعة وكثيرة فيما يتعلق بحظ أبي العلاء المعري من الخيال في تصوراته للعالم ما بعد الشهادة فهناك من أنكر وجود علامات الإبداع والتخيل حيث إعتقد العقاد أن قصة الغفران " تبدو أقرب الى الكتب الجغرافية واوصاف الرحلات المشاهدة الى افانين الشعري ومخترعات الخيال واشبه بالتواريخ المدفونة منها بالنبوءات المؤملة والغرائب المستظرفة "[4]

ويبدو حكم العقاد نابعًا من تأثره بالخيال الرومانسي وما فيه من مبالغات لأنه بالمنظور الواقعي المبسط طبيعته العمل الذي قدمه المعري مشيد على التصور والتمثيل حتى وإن صدق تخيله وبعض

---

[1]- عبد الوهاب الرقيق،هند بن صالح: أدبية الرحلة في رسالة الغفران، الطبعة الأولى جانفي 1999م،الناشر دار محمد الحامي، ص

[2]- ملخص حول رسالة الغفران بواسطة هالة بتاريخ 30مايو2013 الساعة 23:38.

[3]- هومان نظيمان:عنوان المقال:دراسة الطابع القصصي في رسالة الغفران،اضاءات نقدية فصلية"محكمة"السنة الثالثة–العدد تاسع مارس 2013م ص204.

[4]- عباس محمود العقاد، رجعة ابي العلاء، منشورات المكتبة العصرية صيدا، بيروت، ط2،ص85.

الحقائق في تصوراته، كما ساند هذه الفكرة كامل الكيلاني، وذلك بإنكاره أن يكون للغفران أي حظ من الخيال[1].

هذا الحكم نابع من كون المعري لم يقدم جديدا يذكر، فرسالته متضمنة لمجموع من الآيات والأحاديث والأشعار، وما عرف منه في كتب التاريخ والقصّص الأسطورية، صحيح قد نوافق هذا التحليل في الشواهد المقدمة لكننا نراه مجانبا للصّواب إذا عرفنا الصيغة الأسلوبية، التي كتبت بها رسالة الغفران، والغرض البلاغي منها، لهذا ذهب البعض لتأكيد علامة الإبداع والتخيل في الطريقة التأليفية لرسالة الغفران، وخاصة في جانبها الخيالي، وعلى رأس هؤلاء عائشة عبد الرحمان حيث ذهبت إلى أن خيال المعري يتمثل في: «أسلوبه الفذ في تأليف الصورة الجديدة من المواد القديمة، وطريقته المبتدعة في عرض هذه الأخبار والأقوال في ذلك القالب الخيالي الذي يشخص المعنى ويجسم الصورة[2]»

ج/ الغموض وكثرة الغريب: تتميز طبيعة اللغة التي كتبت بها رسالة الغفران بإيغالها في الغموض، وكثرة مفرداتها الغريبة–وقد يعود هنا الى بعدنا عن اللغة العربية ومعرفة أسرارها وممارستها الفعلية ومعاينتها، فالحذاقة تنقصنا لفهمها" فمن أراد قراءتها، وفق معناها أحتاج الى دقة ملاحظة، فطنة وبعد نظر ونور بصيرة، وإلى أن يدرس روح كاتبها، فيحسن درسه ويعرف أغراضه وإلاّ مرت به وكأنها كتاب من كتب الدين".[3]

وقد تفطنت إلى هذه الفكرة عائشة عبد الرحمان بقولها:" فالذي يراه قارئ الغفران اليوم ممن، لم يفرغ لها أو لم يتخصص فيها، أو ممن يجهل روح أسلوبها كالمستشرقين غامضًا أو مغلقا، لا يراه كذلك الذين درسوا الغفران أو الذين عاصروا أبي العلاء وعرفوا أسلوبه وأسلوب عصره"[4]

[1]- نقلا عن عائشة عبد الرحمان، الغفران، دراسة نقدية ،دار المعارف، ط4، 1999م، ص84.

[2]- حساني شريف نجيب:رسالة الغفران للمعري قراءة تاويلية، مذكرة لنيل درجة الماجيستير في الادب واللغة العربية وتخصص:النقد الادبي اشراف الأستاذ الدكتور محمّد بالخضر فرار ، السنة الجامعية 1432هـ1433هـ/2012،2011م، ص149.

[3]- طه حسين:ذكرى ابي العلاء، عنى بنشره وتصحيحه: توفيق الرافعي،مكتبة الهلال مصر،ط2،ص 291.

[4]- عن عائشة عبد الرحمان، الغفران،دراسة نقدية ،دار المعارف،مصر،ط4، 1999م، ص81.

فالغرابة في رسالة الغفران هي الطريقة الفنية التي إنتهجها المعري في الإجابة على رسالة إبن القارح وكيفية تهيئته لصعود السّماء."[1]

د/ طريقة القص: نحن أمام نوع جديد من القص، نوع غريب وظريف، لا تجدي فيه وسيلة السند لأنه قص مستقبلي لا ماضوي، فكيف إستطاع المعري أن يأخذ بقارئه إلى هذه العوالم الجديدة المتخيلة دون أن يصدم السائد لديه، ودون أن ننسى حرص الكتاب على إهام القارئ بالصدق؟ لابد أن نأخذ هذه الأطر بالحسبان حين ننظر إلى ولادة الغفران، ولا سيما إذا كانت تتناول موضوعا حساسا وملغما بالمخاطر، وهو موضوع الدار الآخرة ولريّ ظمأ هذه التساؤلات علينا العودة الى مقدمة الرّسالة، حيث يقول ردا على رسالة ابن القارح.

وقد وصلت الرّسالة التي بحرها بالحكم مسجور ومن قرأها مأجور، إذا كانت تامر بتقبل الشرع وتعيب من ترك أصلا إلى فرع... ولعله، سبحانه قد نصب سطورها المنجية من اللّهب، معاريج من الفضة او الذهب، تعرج بها الملائكة من الأرض الرّاكدة الى السّماء وتكشف سجوف الظلماء[2].

فهناك إذا مستويات من القص:

1–مستوى الرسالة: وفيه نجد أنفسنا أمام حالة طريفة ونادرة في الفن القصّصي، يكون فيها المتلقي (ابن القارح) هو البطل نفسه ويطوع المعري ببراعة إتجاه الخطاب نحو القص بإستخدام ضمير الغائب الذي فرضه عرف الإحترام والتبجيل.

2–مستوى القصة: وفيه نتلقى الرسالة بعيدا عن ملابساتها، فتبدو لنا كتلة قصصية متكاملة، فنحن لسنا معنيين بالشخصية الحقيقية، وإنما نعايش شخصية قصّصية جديدة هي محط إهتمامنا، وفي هذا المستوى يصبح السّارد/المعري جزءًا من القصة فهو من تلقى الرّسالة وأجاب عنها.[3]

---

[1]- حساني شريف نجيب:مرجع سبق ذكره، ص 74.

[2]- ركان الصفدي:الفن القصصي في النثر العربي حتى مطلع القرن الخامس هجري- " الأولى 2011 الهيئة العامة السورية ص 227-228.

[3]- مرجع نفسه، ص230-231.

وإذا دمجنا المستويين تجلى العمل في الترسيمة التالية:

السّارد–ق (المعري/السّارد الدّاخلي–الرسالة إبن القارح) المتلقي.

هـ/الأسلوب: إن الطريقة الفنية والخيالية التي إنتهجها، أبو العلاّء المعري في كتابة رسالته تميزت بالكثير من الخصائص الفنية والأسلوبية سواء منها ما تعلق بالجانب اللّغوي أو الجانب التخيّلي أو النفسي أو الفكري، وما دام الأسلوب هو الرّجل نفسه، فإن هذا يدعو إلى الوقوف على أهم الخصّائص التي تعبر عنه بشكل أو بآخر عن الإنسان ومعارفه ونظراته الحقيقية.[1]

–تعتبر رسالة الغفران من الرسائل الأدبية في أواخر القرن الخامس الهجري بمعرة النعمان لأبي العلاء المعري التنوخي (363م–449م)، وهي رد على رسالة: إبن منصور بن طالب الحلبي المعروف بـ «ابن القارح «الملقب بدوخلة، جاءت الرسالة للتعبير على القدرة الإنسانية متمثلة في إنشاء الشعر، والمهارة اللّغوية لجملة من الشعراء العرب، أبدى فيها المعري براعته الأسلوبية في قالب تهكمي ساخر

[1]- حساني شريف نجيب،مرجع سبق ذكره ص146.

تمهيد: مفهوم أدبية الرّحلة، الرحلة من الفعل الى الانجاز

الرحلة نوع من أنواع الأدبية ذات طابع عربي أصيل منذ تقدم الفتوحات الإسلامية ، سيما مع بداية التوسع الإسلامي للأقطار المتاخمة للجزيرة العربية وسرعان ما تحولت إلى فن أدبي وتاريخي وجغرافي يسجل أوضاعًا ويقوم بتحليل الوقائع والمشاهدات التي يباشرها الرحالة ويستلهم الطابع الأدبي فن هذا النوع من التاريخ الواقعي بالخيالي، وإن كان الأساس الذي ترتكز الرّحلة عليه هو التاريخ والجغرافيا ونذكر بعض الرحالة الذي عرفوا برحلاتهم (كاليعقوبي)صاحب كتاب البلدان، و(المسعودي) وكتابه ومروج الذهب و(الإدريسي) مع كتابه نزهة المشتاق في اختراق الأفاق، وإبن جبير برحلته التي إقترت بإسمه ورحلة إبن بطوطة ،الذي نحن بصدده.

التداخل الحاصل بين الجنس والنوع الأدبيين:

الاجناس والانواع بنى مُتَحَوِّلة ومُنتَقِّلة قادرة على الحلول في اصناف من الاقوال المتنوعة وقادرة على ان تغير من اوضاعها ومقاماتها، وقادرة على الانفتاح والتوسّع، والعلاقة الحاصلة بين الجنس الادبي والنوع الادبي، علاقة العام بالخاص، فالرحلة جنسٍ ادبي مسقلٍ بذاته، يتضمن انواعا ادبيّة مختلفة، فإذا ما دققنا النظر في بنية النّص الرّحلي، نجدها تتكون بطريقة غير مباشرة من انواع ادبيّة مختلفة: كالقصّة، الشّعر، الأسطورة، والأحاجي، والمغازي، والسّير المتعلقة بالشخصيّات البارزة.

ومن الواضح أن الجنس الادبي يبقى محافظا على سماته الرّاسخة، إلى ان يتمّكن جنس آخر من التغلغل في أعماق الجنس الشبيه، ومحاولة خلخلة الثابت، والنفاذ الى خصائصه النوعية بهدف إزاحتها، وخلق قوانين جديدة للكتابة بطرقة هجينة، والتي تسمح بتأسيس منظومة توليفيّة بين العديد من الانواع الأدبيّة والانواع غير الأدبيّة، بل يمتد هذا الانسجام الى اشكال من التعبير من رسم، وتصوير فتوغرافي، او نقش اثري، فضلا عن الخرائط، ورواسم الدليل السّياحي او محكيات رحلات مرئية او مكتوبة[1]

[1]- ينظر: عبد الرحيم مؤدّن: الرحلة المغربية في القرن التاسع عشر، مستويات السرد، ط1، 2006، دار السويدي للنشر والتوزيع، -ابو ضبي- الامارات العربية، ص38-39.

الرّحلة من الفعل الى الإنجاز:

لما كانت الرّحلة ذات صبغة توثيقية، فإن هذا التوثيق طرح أشكالا من حيث التصنيف والتجنيس متمثلا ضمن الأشكال التي إتخذتها الكتابة، في التراث السّردي القديم وهذه الكتابة لها بداية ونهاية كمكوّن جوهري من مكونات النصوص السّردية تدخل ضمن البنية الثقافية للأمم والشعوب وهذا التشكل اعطى انفتاحا نصيا سمحت له بالتفاعل والتداخل مع اجناس أخرى من النصوص وهذا البناء النصّي قام اساسًا على محورين هامّين هما:

-محور الحكي: وما تضمنه من أساليب جاءت لتقديم اهم المشاهدات والوقائع والاحداث والشخصيّات التي لبست الرحلة.

-محور التاريخ: ويتمثل في التدوين المتصّل بعناصر الجغرافيا، والأثنوجرافيا * وغيرهما ضمن مقصدية التخبيل والتوثيق وهاتان المقصديتان يتوزعها[1] جنسان مختلفان من الرحلة أحدهما يرتكز على الواقعي يرتكز على الواقعي المألوف والمشاهد وهذا النوع هو الشائع، والأخر تخييلي يمتص مادته من الواقع المحتمل اللّامرئي مفاده اقتحام عالم مجهول، فهو نوع من ابداء روح"...التّحدي والافتتان اللامحدودة بالمجهول[2].

أمّا عن حركة الإنجاز التي تتم عبر تذكرات وإنفعالات شعورية ولّاشعورية إبتداء بالشفوي وإنتهاء بالمكتوب، أو العكس، وهذه الحركة جاءت لتحويل التجربة الى نوع من المعرفة والمتعة.

وقد تطول هذه الحركة ويمتد زمانها كرحلة ابن بطوطة التي بلغت ثلاثة عقود عبر مراحل مرتبة: مرحلة الحكي الشفوي، ثم التدوين الأول ثم التدوين النهائي[3].

---

* - الاثنوغرافيا: علم وصف الشعوب وهو احد علوم الانسان وينصب على دراسته المظاهر المادية للنشاط الإنساني من عادات وتقاليد كالمأكل والمشرب والملبس

[2]- خليفي شعيب : رحلة في الادب العربي، ط1، 2006م ،القاهرة، ص88.

[2]- مذكرة بن شاعة ،أدبيات الرحلة في الادب العربي مذكرة رسالة دكتوراء،إشراف فتحي بوخالفة جامعة محمّد بوضياف-المسيلة السنة الجامعية 2015/2014،ص38.

[3]- علي إبراهيم كردي ،ادب الرحلة في المغرب والاندلس،الطبعة الأولى 2013م مطابع الهيئة العامة للكتاب ص38-1.

ورحلة ابن بطوطة التي نحن بصددها والأدبية مصطلح تنميطي تحدده طبيعة النّص المدون، له معايير ثابتة تحددها اللغة والأسلوب، فالذي جعل من نّص رحلة ابن بطوطة نصّا أدبيّا، إلا انه في الغالب كان حريصا على تأدية المعاني، فابتعد عن الاعتناء بزخرفة الأسلوب وتنميقه على حساب الفكرة، إلاّ انه كان يلجا الى تحسين الكلام باختيار عباراته، وتزيينها ببعض السّجعات التي تأتيه عفو الخاطر دون قصد، ولم تكن تسيئ الى أسلوبه كقوله في وصف شيراز:"...هي مدينة أصلية البناء فسيحه الأرجاء، شهيرة الذكر، منفية، القدر، لها البساتين المؤنقة والأنهار المتدفقة ، والأسواق البديعة، والشوارع الرفيعة، وهي كثيرة العمارة ،متقنة المباني، عجيبة الترتيب، وأهل كل صناعة في سوقها لا يخالطهم غيرهم، حسان الصور، نظاف الملابس وليس في المشرق بلدة تداني مدينة دمشق في حسن أسواقها وبساتينها وأنهارها، وحسن صور ساكنها إلاّ شيراز" [1]

فالكاتب يعني بإختيار ألفاظه وتنقيح عبارته، من دون الانسياق وراء الإسجاع المتكلفة، وسرعان ما يتحرر من السّجع، ويعود الى الأسلوب المرسل الذي يتسم بالعفوية والوضوح.

ومما يلفت النظر أن ابن بطوطة كان يشفع بعض الألفاظ الغريبة، أو الأعجمية، أو المحلية بشروحها أو بما يوضح المراد منها كقوله:"...وولدا الأمير هما شقيقان، والأكبر منهما إسمه تين بك و"بك" معناه الأمير و"تن" معناها الجسد، فكان إسمه أمير الجسد وإسم أخيه "جاك بك" ومعنى جان الروح فكأنه يسمى أمير الروح..."

وقد يوضح بعض الجمل الفارسية كقوله" ويقولون بلسانهم: خرما وماهي لوت بادشا هي، معناها بالعربي: التمر والسمك طعام الملوك."

وقال يصف إحراق إمرأة من الهنود لنفسها: " فرأيت إحداهن لما وصلت إلى تلك الملحفة نزعتها من ايدي الرجال بعنف وقالت لهم: ماواميتراساني ازاطش من ميدانم أو اطش است رما كي مارا وهي تضحك ومعنى هذا الكلام: أبالنار تخوفونني؟ أنا أعلم أنها نار محرقة"

فكان ابن بطوطة يريد أن يخبرنا بمعرفته بلغات البلاد التي مر بها.

[1]- مرجع نفسه، ص28-2.

وحظيت رحلة ابن بطوطة بعناية الباحثين مستشرقين وغربا وإشتعلوا بها ترجمة وتلخيصًا ودرسًا، وطبعت مرات كثيرة في المشرق والمغرب[1] .

-أهمية الكتابة في الرحلة:

تنتشر الرحلة أذن في الكلام والكتابة، أوفي الثقافة الشعبية والثقافية العامة متخذة من طقس السفر، المكون المركزي في الرحلة مهادا محفزا على إكتشاف العالم من جهة، وإبتداع طرائق الكتابة من جهة ثانية.

فالسفر يسمح بالتصنيف، وهو في الوقت ذاته، يمكننا من تلمس خصائص الكتابة، مادامت الرحلة نوعا أدبيا "يقلص دور المصادفة أو يقدر لنا، بقدر كبير قواعد إنتاج النص وقواعد تلقيه في آن معا"[2]

ولا شك أن طريق السفر، يؤدي بالضرورة إلى طريق الكتابة، فالرّحالة الذي يكتفي، دون الكتابة ينزع من مكون السفر دلالته المركزية المجسدة في إلغاء الجدل بين الذات والأخر بين الخصوص والعام، بين الفردي والجماعي، المحلي والكوني، فالطريق المجازي-طريق الكتابة-هو الذي ينير مجاهل الطريق المادي.

وإذا كان الإنسان "رحالة ينتهي بانتهاء الطريق" ودلالة على الموت، فان هذا الطريق يسمح بالإمتداد في الزمن عن طريق الكتابة، وعلى هذا الأساس، فالكتابة "رؤية للعالم" إلى الحد الذي وجه فيه، من بين الرحالة (من يصف كل دقيقة ويدون كل شعور).

وليست كل كتابة عن رحلة ما تعد نصّا من نصّوص السفر، وليس كل وصف للأمكنة المرتحل إليها يخلق نصّا منتسبا الى هذا الجنس الأدبي، بل أن ذلك لا يتأتى للرّحالة إلا إذا مزج بين

[1]- علي إبراهيم كردي مرجع سبق ذكره ص69.

[2]- عبد الرحيم مودّن:الرحلة المغربية في القرن التاسع عشر الطبعة الأولى 2016دار السويدي للنشر والتوزيع ص26.

التسجيل وبين الشعور الخاص تجاه المسجل، وإلا تحول الوصف الى دليل مفرغ من كل إحساس مميّز[1].

– طرائق الكتابة للرّحلة:

تختلف مناهج الرحّالة في كتاباتهم لأسفارهم بين المباشرة الفعلية للكتابة لكل الملابسات التي تصاحب الرحالة اثناء رحلته، وبين مرجئ لها ومؤخر، وبين متوسط بينهما، وتكون كالتالي:

أ–رحلات كتبها أصحابها أثناء الرحلة: ويخضع تدوينها إلى التسلسل الذي سارع إليه الرحّالة، فيدون فيها الأحداث والمفاجآت التي تحصل وفق زمن حدوثها ومكانه، وقد سلك العبدري هذه الطريقة في التدوين.[2]

ب–رحلات كتبت من المذكرات التي دونها أصحابها في أثناء الرحلة، وهي عبارة عن عناوين القضايا والفوائد التي أفاد منها، والأسانيد التي حصل عليها، فقد كان بعض الرّحالين يلجؤون الى تقيد الأمور المهمة التي مرّت معهم حتى لا ينسوها.

ج–رحلات دوت من الذاكرة: وهذا الضرب من التدوين يتم بعودة الرّحالة من رحلته إذ يقوم بإملاء رحلته من الذاكرة من دون أن يعتمد أصولا أو ملاحظات مدونة عن رحلته، ومن هذا النوع "رحلة ابن بطوطة" التي قام بتدوينها الكاتب إبن جزّي بتكليف من أبي عنان المريني ت (709هـ/1358م) الذي أعجب بإخبارها وعجائبها[3].

اولا: ماهية الغرائبيّة واصولها:

1– تعريف الغرائبية لغة وإصطلاحا:

أ–لغة:

[1]– عبد الرحيم مودن: مرجع سبق ذكره، ص28.
[2]– مرجع نفسه، ص14.
[3]– عبد الرحيم مودن: مرجع سبق ذكره، ص 15.

العجيب والعجائبي عند العرب: وقد إستعظمه لفظ العجيب في بعض المعاجم وكتب الأدب بإعتبارها مرادفة للغريب، ولذلك فالعجيب والغريب، هما مستعظمه الإنسان أو إستحسنه أو جهل سببه، ويمكن أن نلاحظ أيضا، أن لفظة عجيب وغريب، متداولتان في السياق نفسه، بحيث لا تفرق بينهما المعاجم العربية القديمة فهي تعرف محورا دلاليا واحدا لا يخرج عن الإطار الديني.

وقد جاء في لسان العرب لابن منظور" إن العجب ما يرد عليك لقلة إعتياده" وأن أصل العجب في اللغة ان الانسان إذا رأى ما ينكره ...قال: قد عجبت من كذا" و" العجب النظر إلى شيء غير مألوف ولا معتاد و"التعجب أن ترى الشي يعجبك نظن أنك لم تر مثله" وآيات الله عجائبه.

-أما القزويني في عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات فيقدم تعريفا غاية في الأهمية فهو يحاول أن يجعله أكثر دقة فيقول:" العجب حيرة تعرض الإنسان لقصوره عن معرفة السبب الشي عجيب قليل الوقوع مخالف للعادات والمشاهدات المألوفة.[1]

ب-اصطلاحا:

إن مصطلح العجائبي له مدلولات عدة وهذا حسب رؤية كل ناقد له، فهناك من يجعله مرادفا للمدهش، وهناك من يجعله مرادفا للوهمي، أو الخارق، وكل واحد من هؤلاء النقاد يبحث عن أصل لهذه الكلمة، فالعجائبي مرادف للعديد من المصطلحات ك: غير الواقعي، خارج عن المألوف، فوطبيعي، ونجد أن المعاجم الإصطلاحية الغربية تعرفه على أنه" نابع المخيلة، غير واقعي، كقولنا رؤية عجائبية أي غير واقعية أو قصة فوطبيعي، كمشهد غير عادي لثوران بركان " أو كل ما يدخل في:" ما يبعد عن مجرى العادي المألوف للأشياء فيبدو معجزا كتردد مصطلح عجائب الدنيا السبع :

إن العجائبي في أصله عند الغربيين، مأخوذ من الكلم اليونانية "فاتاستيكو" وتعني كل ماله علاقة بالمخيلة" ونجد أن المعاجم الفرنسية تأخذ أوكل ماله صله بالخيالي والوهمي والاسطوري، وقد ينزاح الى معادن أخرى كان يأخذ الشكل الفني والادبي الذي يستدعي العناصر التقليدية للعجيب(...)، ويبرز الإقتحام اللاّعقلاني للحياة الفردية والجماعية" أي العجائبي هو تلك القصص أو الروايّات التي

[1]- حسين علام:العجائبي في الادب، الطبعة الأولى 1431هـ/2010م، دار العربية للعلوم ناشرون ص14-ص15.

تستشف من الحياة القديمة للشعوب وتحاول أن تحمل بها هذه الاشكال الفنية الأدبية، وهذا يجعل اللاّعقلاني إحدى السّمات البارزة في هذه الأشكال، حيث يصبح العجائبي لونا من ألوان السحر اللاّواقعي، إنه برق خاطف للأبصار وموجة عاتية تمحو كل ما هو مألوف وطبيعي، وتجعل الإنسان مأخوذا بسّحر هذا الكوكب المضيء لحياة الإنسان الطّبيعية، فهو نتاج التفكير العجائبي المشبع بالأساطير لدى كل الشعوب خاصة الشرقية، وقد إعتبر العجائبي بالدرجة الأولى يندرج" ضمن تراث الأساطير والفولكلوريات الثقافية"[1].

2- الأصول الأولى للغرائبية في الرحلة:

للغرائبية تشكل نوعي في ذاكرة التاريخ المدون للأمم والحضارات المتعاقبة على مر الأزمنة، إقتضته مرجعيات حتمية لكل أمة، وهذه المرجعيات إختلفت باختلاف أصولها فمنها ما هو ديني مشتق من الشرائع والغيبيات، والمعجزات التي أجراها الله على أيدي أنبيائه ورسله، كناقة صالح، ونار إبراهيم الخليل، وعصى موسى، والمعجزات التي أجراها الله عيسى من إبراء المرضى واحياء الموتى وغيرهم من الأنبياء وكذلك الإسكندر ذي القرنين الذي جال في مشارق الأرض ومغاربها، وما كان منه لبنائه لسد يأجوج ومأجوج منعا للإفساد، وقصة ذلكم النفر الذي آووا إلى كهف يحميهم من بطش قومهم، ورحلة الإسراء والمعراج التي حدثت للنبي ﷺ وما شاهده في العالم العلوي من ملائكة وانبياء، فهي رحلة سماوية قدسية ليست كباقي الرّحلات لما فيهي من العجائب الملكوتية شاهدها راي العين، منحه بها الله عز وجل تسلية له على المحن التي مر بها، بل هناك رحلات وقعت لمن لهم دون الأنبياء منزلة، وفيها من الغريب ما فيها كالتي حدثت للصحابي الشهير تميم الداري الذي كان له شان مع مشاهدته للمسيح الدّجال والجساسة بعد إن ماج بهم البحر مدة شهر في سفينة كانوا على متنها.

[1]- نجاح منصوري: سحر العجائبي في رواية وراء السراب...قليلا لإبراهيم درغوثي مجلة المخبر، العدد الثامن 2012قسم اللغة العربية لجامعة خيضر بسكرة، الجزائر، ص،145،146.

إلا أن بعض النصوص الرّحلية ذات الطابع الديني كرحلة الإسراء والمعراج تولدت عنها تجليات اشراقية وجدت طريقها الى كتابات الصوفية النثرية، والمتمثلة في معراج الحارث المحاسبي(243هـ)، ومعراج ابي يزيد البسطامي(261هـ)، ومعراج النفري(354هـ)، ومعراج محي الدين ابن عزبي(638هـ) ومعارج صوفية وفلسفية أخرى.

ومنها ما هو مرتبط بعادات وتقاليد كل أمة تميزها عن باقي الأمم، تولدت عن الموروث الشعبي، تناقلها اللاّحق عن السابق، والأحفاد عن الأجداد، فأضحت تراثا راسخا يستحيل التخلي عنه، تتفاوت العجائبية فيها تفاوتا متباينا، فهناك من العادات والتقاليد لبعض الشعوب والقبائل ما هو أضرب في الغريب الذي لا يتقبله العقل والمنطق[1].

ك:

أ- الطقوس الدينية:

1/ونحن بصدد ذكر النماذج التي تبين هذا النوع من الرحلات ذات الطابع الديني التي هي الصق واليق بالعجائبية في الرحلة، حادثة الإسراء والمعراج التي وقعت لنبي ﷺ التي نظمتها كتب الأحاديث والسير وهذا ما ذكره ضياء الكعبي في كتابه السّرد العربي القديم.

" تشكل المرويات السردية لحادثة الإسراء والمعراج مصدرا من مصادر القص العجائبي في السرد العربي القديم، ولا اعني بالعجائبية في نصوص المعراج ما جاء من ايات قرآنية كريمة واحاديث صحيحة تؤكد صحة وقوع هذه الحادثة، ولكن اعني الاحاديث الضعيفة او الموضوعة عن الاسراء والمعراج التي احست انها، كان النص المولد لذاكرة شعبية اشتغلت بتحويل النص المعّراجي إلى قصة مشبعة من خلال إدخال نصوص أخرى في نسيجها وهو ما اسمته سيزا قاسم (الإشباع التوليدي).وهكذا تحول النص المولد الى تجليات ثرة، وجدت طريقها الى نثر المتصوفة فكان لدينا معراج الحارث المحاسبي(243هـ)، ومعراج ابي يزيد البسطامي(ت261هـ).ومعراج النفري(354هـ).ومعراج محي الدين بن عربي (638هـ)ومعاريج صوفية أخرى وفلسفية، كما تجلي النّص المعراجي في سياق آخر

[1]- ينظر: السرد العربي القديم، ضياء الكعبي، ص54،55.

هو الثقافة غير العالمية أو الثقافيّة الشعبية التي تعتمد أساسا الحكاية والنقل الشفاهي، وحتى لو وجدنا نصا مكتوبا للمعراج في هذه الثقافة فان النّص لا يقف دليلا على ثبات النص المحول إذا أن هذا النّص «قد أخذ ينمو ويتطور على مرّ العصور منفتحا ومستوعبا عناصر ومصادر غير إسلامية، من وثنية وعبرية ونصرانية دخلت إليها، أي قصة المعراج، عن طريق التصوف والفلوكور الشعبي كما دخلت عن طريق التراث الحيّ الذي تناقلته الأجيال كابراً عن كابرٍ.

وسنقف عند نّص المعراج لإبن عباس كما ورد في الرواية الشعبية، لكونها نصا يصوغ لنا معالم أدب عجائبي بكر قد يشكل مع أحاديث المعراج التي أوردها ابن إسحاق في السيرة ملامح تطور قصة المعراج من صيغة الحديث والخبر الى صيغة القصة الكاملة، وكانت الذاكرة الشعبية تتوسل بابن عباس ابن عم الرسول ﷺ لبيان صحة مروياتها موظفة في ذلك صلة القرابة، وكون ابن عباس روي عن الرسول ﷺ، أحاديث نبويّة عدة.

وتحافظ رواية ابن عباس الشعبية على إطار الحكاية الأصل، أي حديث الإسراء والمعراج كما ورد في الحديث الصّحيح، وتتألف هذه الرواية الشعبية من اقسام ثلاثة: أولها الإسراء من مكة(الحرم) الى القدس (المسجد الأقصى)، وثانيها العروج من المسجد الأقصى إلى السّموات العلى ومنها الى سدرة المنتهى، أما ثالثها فهو العروج من سدرة المنتهى إلى قاب قوسين أو أدنى والراوي الأول لهذه الحادثة هو الرّسول صلّى الله عليه وسلّم، ولكن يتحول الراوي الثاني وهو ابن عباس من متلق لما قاله الرّسول عن المعراج إلى فاعل حقيقي في النص عندما يتدخل بين الحين والأخر في صياغة العوالم السردية العجائبية.

ويظهر الرّاوي المجهول فجأة عندما يكون الرسول صلّى الله عليه وسلم في السّماء الخامسة يشاهد ملك الموت من خلال إثارة دالة في النّص، وهي قال: المؤلف رحمه الله تعالى: اللّهم إنا نسألك بحقك العظيم، وبحق إسمك الكريم أن لا ترينا وجه، (أي وجه ملك الموت) ووجه مالك خازن النار بقدرتك وحولك يا ذا الجلال والإكرام.

وتمثل مشاهد السّرد العجائبي النواة الرئيسية المشكلة لهذه القصة الشعبية، ونجد هذا في وصف البُرَاق، ووصف ملك الموت، ووصف صور العذاب في النار وخاصة عذاب النساء، ووصف الحجب

والسموات الأسطورية وتكويناتها العجائبية من زمرد، ونحاس، وحديد، وذهب، ونجد أيضا الوصف العجائب للملائكة، وهذا الوصف لا نجده لا في القران الكريم ولا في السنة النبوية الصحيحة. إذ يصف ابن عباس ملكا عظيم الخلقة بانه راكب على فرس من نور، وعليه حلة من نور، وهو مؤكل بسبعين ألف ملك، مسومين بأنواع الحلي والحلل، بيد كل واحد منهم حربة من نور هي جند الله تعالى ويصف ابن عباس أيضا ملكا آخر نصفه من ثلج ونصفه من نار فلا النار تذيب الثلج(هكذا)، ولا الثلج يطفئ النار، له ألف رأس في كل رأس الف وجه ، وفي كل وجه الف فم، في كل فم الف لسان، يسبح الله تعالى بألف لغة لا يشبه بعضها بعضا، ونلاحظ هنا تدفق السرد العجائبي الذي يكاد يكون ممتدا الى ما لانهاية، إذا الألف تعد العدد الذي ينفتح على المطلق، وينتهي هذا السّرد بعد تكثيف المكونات العجائبية وإدخال المخلوقات الغريبة والخارقة مما يؤدي الى خلق السّرد الاختلاقي الذي تكون اظهر وظائف التحكم التلاعبي والسيطرة والتأثير على الملتقي، وممارسة سلطة القوة المدبرة عليه، والذي يمارس هذه السلطة هو الراوي المجهول الذي يختبئ وراء قناعي الرّسول وابن عباس وقد يسفر هذا الراوي عن وجهه فجأة ثم يعود للاختباء كي يمارس سلطته في الخفاء، ويؤكد هذا السارد الحاضر، الغائب نجاحه تماما في هذه اللعبة بعد ان يستحوذ على فضاء المستمعين والمتلقيين الذين يتماهون مع لعبة السرد فلما سمع المسلمون ذلك (أي عجائب الإسراء والمعراج وخوارقه) فرحوا فرحا شديدا، وضجوا بالتهليل والتكبير، وخرج رسول الله صلّى الله عليه وسلّم والمسلمون من حوله، وهو بينهم كالقمر، وهم حوله كالنجوم، وأسلم في ذلك اليوم أربعة الآف رجل...

ولم يقتصر تأثر الذاكرة الشعبية بمادة الإسراء والمعراج على هذه الرّاوية الشعبية، فقد ظهرت روايّات شعبية أخرى مع بعض الفوارق الأسلوبية[1].

2/عن فاطمة بنت قيس ﵂ قالت: سمعت نداء المنادي ينادي، منادي رسول الله صلى الله عليه وسلم، ينادي (الصّلاة جامعة) فخرجت إلى المسجد فصليت مع رسول الله ﷺ، فكنت في صف

[1]- ضياء الكعبي:السرد العربي القديم، الطبعة الأولى 2005م، دار الفارس للنشر والتوزيع ، ص57.

النساء الذي تلي ظهور القوم، فلما قضى رسول الله ﷺ صلاته جلس على المنبر وهو يضحك فقال: «ليلزم كل انسان مُصَلاهُ

ثم قال: "أتدرون لما جمعتكم؟" قالوا: الله ورسوله اعلم، قال:" إني والله ما جمعتكم لرغبة ولا لرهبة، ولكن جمعتكم لأن تميما الدّاري كان رجلا نصرانيا فجاء فبايع واسلم، وحدثني حديثا وافق الذي كنت احدثكم عن المسيح الدجال، حدثني انه ركب في سفينة بحرية مع ثلاثين رجلاً من لخم وجذام، فلعب بهم الموج شهرا في البحر، ثم ارفئوا (أي التجئوا) الى جزيرة في البحر حتى مغرب الشمس، فجلسوا في اقرب السفينة (وهي سفينة صغيرة تكون مع الكبيرة كالجينية يتصرف فيها ركاب السفينة لقضاء حوائجهم، الجمع قوارب والواحد قارب) فدخلوا الجزيرة فلقيتهم دابة أهلب(أي غليظ الشعر) كثرا الشعر، لا يدرون ما قبله من دبره من كثرة الشعر، فقالوا: ويلك ما انت؟ فقالت: انا الجساسة (قيل سميت لتجسسها الأخبار الدجال) قالوا: وما الجساسة؟ قالت: أيها القوم انطلقوا الى هذا الرجل في الدير فانه الى خبركم بالأشواق. قال لما سمّت لنا رجلا فرقنا (أي خفنا) منها تكون شيطانة، قال: فانطلقنا سراعا حتى دخلنا الدير فاذا فيه اعظم انسان راينا قط خلقا، واشده وثاقا، مجموعة يداه الى عنقه، ما بين ركبته بالحديد، قلنا: ويلك ما أنت؟ قال: قد قدرتم على خبري، فاخبروني ما انتم؟ قالوا : نحن أناس من العرب ركبنا في سفينة بحرية، فصادفنا البحر حين إغتلم (أي هاج) فلعب بنا الموج شهرا، ثم أرفئنا إلى جزيرتك هذه، فجلسنا في أقربها، فدخلنا الجزيرة ، فلقينا دابة أهلب كثيرة الشعر لا يرى ما قبله من دبره من كثرة الشعر، فقلنا ويلك ما أنت؟ فقالت؟ انا الجساسة، قلنا وما الجساسة؟ قالت: إعمدوا إلى هذا الرّجل في الدّير فإنه إلى خبركم بالأشواق، فاقبلنا إليك سراعَا، وفزعنا منها ولم نأمن أن تكون شيطانة فقال: أخبروني عن نخل بيسان، قلنا: عن أي شانها تستخير؟ قال: أسألكم عن نخلها هل يثمر؟ قلنا له: نعم، قال أما أنه يوشك ان لا تثمر، قال: أخبروني عن بحيرة طبرية، قلنا: عن أي شانها تستخير؟ قال: هل فيها ماء: قالوا هي كثيرة الماء، قال: أما أن مائها يوشك أن يذهب، قال: أخبروني عن عين زغر؟ (وهي بلد تقع في الجانب القِبلي من الشام) قالوا: عن أي شانها تستخير؟ قال: هل في العيّن ماء؟ وهل يزرع أهلها بماء العين؟ قلنا له: نعم هي كثيرة الماء، وأهلها يزرعون من مائها، قال: أخبروني عن نبيّ الأُميين ما فعل؟ قالوا قد خرج

من مكة ونزل يثرب، قال اقاتله العرب؟ قلنا نعم، قال: كيف صنع بهم؟ فأخبرناه انه قد ظهر، على من يليه من العرب واطاعوه، قال لهم: قد كان ذلك، قلنا نعم، قال: إما أن ذاك خير لهم أن يطيعوه. وإني مخبركم عني، إني انا المسيح، وإني أوشك أن يؤذن لي في الخروج، فأخرج فأسير في الأرض فلا أدع قرية إلا هبطتها في أربعين ليلة غير مكة وطيبة فهما محرمتان علي كلتاهما، كلما أردت أن أدخل واحدة أو واحد منهما إستقبلني مَلِكٌ بيده السيف صلتا يصدني عنها، وأن على كل نقب منها ملائكة يحرسونها.

قالت: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وطعن بمخصرته في المنبر:" هذه طيّبة هذه طيّبة" يعني المدينة "ألآ، هل كنت حدثتكم بذلك؟" فقال: الناس نعم.

" فإنه أعجبني حديث تميم أنه وافق: الذي كنت أحدثكم عنه وعن المدينة ومكة إلاّ أنه في بحر الشام أبحر اليمن، لا بل من قبل المشرق ما هو، من قبل المشرق ما هو، من قبل المشرق ما هو؟"

(قال القاضي: لفضة (ما هو) زائدة، صلة للكلام، ليست بنافية، والمراد إثبات إنه في جهة المشرق، وأما بيده إلى المشرق، قالت: فحفظت هذا من رسّول الله صلّى الله عليه وسلم.[1]

ب- الغرائبيّة في العادات والتقاليد:

1-قبائل الشمال التايلندي:

قبائل العيوس، الياوو، الكارين والآخا. نزحوا من البلاد المجاورة لتايلندا، من بورما والصّين والتبت، واختاروا العيش في شمال تايلندا، في الجبال البعيدة عن بانكوك، بيوتهم من الخيزران، يعيشون فيها جماعات تنتمي الى حوالي ست اتنيات مختلفة، ليست لها اية نقاط مشتركة مع الفلاحيين التايلنديين الذين يعيشون في الوديان والسهول.

[1]- رواه مسلم في صحيحه رقم(2942)، فهو صحيح، رواه اهل العلم في كتبهم، من طريقين عن فاطمة بنت قيس رضى الله عنها، وقال الترميذي رحمه الله الجامع الصحيح(2253): هذا حديث صحيح غريب --وقال ابن عبد البر، الاستذكار(7/338): ثابت صحيح من جهة الاستناد والنقل وللاستزادة انظر الأرقام التالية(8801)(8806)(32556).

"العيوس"(وإسمهم أيضا الهمونغ) هم مزارعون من الدرجة الأولى، وحرفيون لا يضاهون في مهارتهم، أما "الكارين" فيبرعون في تدريب الفيلة "الليزو" ويحبون الأعياد والرقص،" الياوو" هم في الأرجح أفضل الصيادين في الغابات، ويتوارث " الآخا" القصائد الشعبية شفهيا.

تعيش هذه القبائل على ضفاف نّهر الميكونغ، ولم تدخل الكتابة إلى حياتهم اليومية بعد، لذلك تراهم يعيشون حياة بدائية، في خيم من الخشب أو الخيزران، وسطوحهم من "الالانغ-الانغ" وهي عشبة مفضّلة لدى الفيلة، وليس في قراهم مياه جارية ولا كهرباء.

تحمل الأم طفلها في جيب كبير على الظهر، ويتكون من مربع من القطن الأسود، يسمح للطفل بالحركة، ويحزم الجيب إلى ظهر الأم بحزامين، وهو مزخرف بتطريزات حادة الألوان، وبكرات قطنية حمراء تتناسب مع تلك التي تزين قبعة الطفل.

والأم مظهرها ملفت ومؤثر، تلف رأسها بمنديل واسع يبرز وجهها، لا تخني الرأس بسهولة، وهذا عائد الى أن زينة الرأس الثقيلة ترغم المرأة على الِتزام وضعية شامخة وحياة النساء اليومية مجردة من أي شكل من أشكال الرّاحة.

نساء الآخا يلبسن التنورة المزركشة بالمعدن والمذيلة بالشرائط ولباس الرأس مكون من كرات فضية صغيرة، تزينها قطع نقدية مختلفة، وتتخللها حبوب من الخرز الملون.

والمرأة المتزوجة في قبيلة الآخا تشك في مؤخرة لباس الرأس المزخرف قرصا فضيّا، وهو علامة خضوعها للزوج وللرجل بشكل عام يسمى القرص الفضّي " لسان المرأة العملاقة"، وهي تسميته أسطورة تروي وهي: أن شابا صادف إمرأة عملاقة رهيبة صارعها وانتصر عليها، فقطع أنيابها ولسانها، ووضعه عند مؤخرة الرأس لتنعكس عليه أشعة الشمس حين تنحني النساء للعمل في الحقول اللّغة عند قبائل الشمال التايلندي مزيج من لهجات متعددة، كما أن بعضا من هذه الجماعات لم يعرف الكتابة مطلقا، وتقتصر على التقاليد الشفوية التي تنتقل من جيل الى جيل[1].

[1]- اديب أبي ظاهر: عادات الشعوب وتقاليدها، الطبعة الأولى 1993،دار الشواف للنشر،ص،12-13-14.

ولدى قبيلة الاخا أسطورة تفسر غياب الكتابة، وهي أن النّصوص القديمة كانت مكتوبة على جلود الثيران، وتعرضت هذه القبيلة لغزوات متعددة، وفي إحداها أكل الغزاة الجلود، لإعتقادهم انهم يحفظونها، أو يستزيدون معرفة من خلال ذلك.

2-رقصة العظام في مدغشقر:

في مدغشقر تقاليد وعادات غريبة للغاية، من بين هذه التقاليد نبش عظام الأموات من القبور، وحملها بعناية والرقص بها، وإقامة الولائم بهذه المناسبة.

ويقوم أقرباء الموتى الذين أخرجت عظامهم من القبور، بالتحدث مع العظام، يسألونها عما حدث لها منذ أن توفي صاحبها.

يعتقد سكان مدغشقر أن في هذا اليوم تتلاقى أرواح الموتى بأرواح الأحياء، وبالتالي من مغزى هذه الإحتفالات أن الموت ليس نهاية الإنسان، وأن هناك حياة ثانية تنتظره.

وجد الباحثون صعوبة كبيرة في الوصول إلى كشف أسرار معظم الأسر في مدغشقر، وأن نصف السكان على الأقل، ما زالوا يعتقدون بأن أرواح موتاهم تعيش معهم ولا تفارقهم.

وللقبائل في مدغشقر عادات غريبة في تكريم الموتى، كإقامة أضرحة ضخمة فخمة بالغة النفقات.

وهناك قبيلتان فقط هما أكبر القبائل، وتشكلان نصف السكان (7 ملايين نسمة) تنبشان العظام من القبور، وتقيم لها إحتفالات ومآدب وحفلات رقص.

وتعرف هاتان القبيلتان باسم ميريناس و بتسيلوس.

تنبش عظام الموتى عادة كل ثلاث سنوات مرة واحدة وسط رقص غريب وتجري هذه الاحتفالات في خلال شهر آب(أغسطس) وأيلول(سبتمبر) وتشرين الأول(أكتوبر) بعد ان ينتهي موسم حصد الأرز.

تبلغ نفقات الإحتفالات بعظام الموتى مبالغ طائلة، حتى أن بعض الأسر، يبيع كل غلالة من الأرز لتأمين مثل هذه الإحتفالات ويدفن سكان مدغشقر مع موتاهم كميات كبيرة من الذهب والنقود.

يرتدي المحتفلون أفخر الثياب وأغلاها ثمنا وتستمر كل أسرة بإحتفالاتها مدة يومين والأسرة الثرية تستأجر أكثر من فرقة موسيقية للعزف في خلال هذه المناسبات.

تقوم راقصات محترفات بتأدية رقصات بالقرب من العظام، وكلما إستمرت وقتا أطول في رقصاتها، كلما" إرتاحت" روح الميت وفي اليوم الثاني من الإحتفالات يقدم كل فرد من أفراد أسرة الميت نفسه إلى العظام.

وتختتم الإحتفالات بلف العظام بقماش من حرير، والرقص بها في الشوارع، ومن ثم يعاد دفنها في الضريح نفسه وفي بعض الأحيان يظل قريب الميت يرقص ويرقص حتى يغيب عن الوعي، ويضع بعض أفراد القبائل مع العظام كمية من التبغ حتى تظل الروح مرتاحة.

يظل الحديث مع العظام محصورا حول الأعمال الجيدة والصالحة، ويتجنب المحتفلون أي حديث سيء معها، حتى لا تغضب روح الميت.

وتقضي التقاليد أن يدور أقرباء الميت وهم يرفعون العظام أربع مرات حول القبر قبل دفنها.

يضع السكان عادة سجادة فخمة في داخل القبر، وبعد مرور بين 30و50سنة يقوم السكان بجمع العظام كلها من الأضرحة ووضعها في ضريح واحد،

ولعل أطرف ما في الأمر أن السكان يعتقدون بأن الهدف الرئيسي من الزواج في مدغشقر هو إيجاد شخص يعتني بالآخر (الزوج أو الزوجة) في حال وفاة أحدهما والإشتراك في رقصة العظام[1].

ج– الغرائبية في الخيال:

[1]– اديب أبي ظاهر: مرجع سابق، ص41.

فاعلية الخيال: يحتل الخيال موقعا أساسيا في تشكل الخطاب الرّحلي ضمن طرح المتخيّل السردي العربي وهذا بداية من الخصائص المميزة لكل تشكل من التشكلات السّردية كونه يعد جزءا من المعرفة التي تتمخض عن تجربة الإنسان في الحياة بإعتبار هذه الأخيرة أنها (مخزنة في صورة من خزائن الحياة).[1]

ولما كان الخيال والتخيّل مكونا هاما في عالم الرّحلة، مفعلا لعنصر التشويق، كان لزاما علينا أن نعمد التي تعريفه: يعرف عبد الرؤوف المناوي الخيال بأنه:" أصله القوة المجردة كالصورة المتصورة في المنام وفي المرآة وفي القلب، ثم إستعمل في صورة كل من صور، وفي كل شخص دقيق يجري مجرى الخيال".

أما التخيل" فهو تصوير خيّال الشيء في النفس".[2]

أما الجرجاني فيعتبر الخيال" قوة يحفظ ما يدركه الحسي المشترك من صور المحسوسات بعد غيبة المادة، بحيث يشاهدها الحس المشترك كلما إلتفت إليها فهو خزانة للحس المشترك".[3]

إذا فالخيال أداة يستعمله الرّاوي في جمعه لصور مختلفة بين العالم المحسوس والعالم المعقول، أما التخيل فقد قسمه الجرجاني الى قسمين من حيث معناه الادبي الى قسم عقلي وقسم تخيلي.

قسم عقلي: وتكون معاينة صريحة في أدب المواعظ والحكم أثر السلف.[4]

كما إعتبر التخيّل " تحريف القول الصادق عن العادة او الحاقه بشيء تستأنس النفس به، فربما أفاد التصّديق أو التخيّل، وربما اشتغل التخيل عن الإلتفات.[5]

---

[1]- سليمان العطار: الخيال عند ابن عربي (النظرية والمجالات) بدون طبعة، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة1991،ص145.

[2]- محمّد عبد الرؤوف المناوي التوفيق على مهمات التعريف، تح: محمّد رضوان الداية، دار الفكر، بيروت لبنان، ط1 ،1990،ص329

[3]- الشريف الجرجاني: التعريفات، مكتبة لبنان، بيروت، ط1 ،1988،ص107.

[4]- عثماني موافي: في نظرية الادب، من قضايا الشعر والنثر العربي القديم، ج1، دار المعرفة ،القاهرة، مصر(ط1)،2005 ،ص135.

[5]- المرجع نفسه، ص، 137.

إذا فالتخيّل مبني على الخداع والكذب وذلك بإستخدام اللّغة بطريقة غير طبيعيّة عن الواقع، والخيّال في الأدب إنتهاك للقوانين المعتادة والمألوفة، تدفع القارئ أو المتلقي إلى إكتشاف واقعة بطريقة فنية وسلبية في ذلك الخداع والكذب والإبتعاد عن المألوف.

لازالت الرحلة التخيليّة في أدبنا العربي موروث متشعبا، في منطلقاته وأبعاده، ثريا بالمعطي التأويلي الذي يفتح للمقروءات مسالك متعددة كالقصص الفلسفية، والخيّال العلّمي كقصة حي بن يقظان لإبن طفيل ومنامات الوهراني، والتوابع لإبن شهيد، ورسالة الغفران، وغيرها، ونحتاج منها نموذجين هامين هما قصّة حي بن يقظان لإبن طفيل، وقصة السندباد البحرّي من حكاية ألف ليلة وليلة.

1-قصة حيّ بن يقظان:

ترمز قصّة حيّ بن يقظان للإنسان وعلاقته والدين...

تقول القصّة أن حيّ بن يقظان ولد في جزيرة الهند تحت خط الإستواء وأنه إختلف في تكوينه فقيل أنه تولد دون أم وأب من طينة تخمرت بالجزيرة على مر السنين وقيل انه إبن أميرة جميلة كانت شقيقة لملك يمتلئ بالغيرة والأنفة منعها من الزواج بحجة أنه لا يجد لها زوجا كفئا وكان لهذه الفتاة قريب إسمه يقظان وهو كريم النفس، طيب الأخلاق.

فلما غاب الملك في بعض حروبه، وطالت غيبته، حسبه أهله قد مات، أو قتل في تلك الحروب، فزوجوا يقظان تلك الفتاة سرا، وبعد أشهر قليلة حملت منه ثم وضعت طفلا تلوح عليه مخايل الذكاء، ودلائل النبل، وما وضعت الفتاة طفلها، حتى عاد أخوها من الحروب منتصرا ولم يجرؤ أحد من أقارب الملك على إعلامه وإخباره بسر الزواج الذي تم في غيبته خوفا من غضبه عليهم وإنتقامه منهم، وخشيت الفتاة أن يذيع سرها فيقتلها أخوها ، ولم ترى أبدا من كتمان أمرها عنه، فوضعته في تابوت ثم قذفت به في اليم الذي حمله إلى ساحل أخرى، وكانت مسامير التابوت قد قلعت فلما إشتد الجوع بذلك الطفل بكى وإستغاث، فخرجت ظبية تبحث عن ولدها ، فلما سمعت صراخ الطفل ظنته ولدها المفقود، فتتبعت الصوت حتى وصلت إلى التابوت حيث أرضعته وعطفت

عليه فأخذته وربته وعندما كبر بدأ يحاكي ما يسمعه من أصوات الطير والحيوان وبدأ يتخذ من أوراق الشجر ملابس لأنه رأى ما يغطي الحيوانات من الريش و الوبر...

وشب الفتى متوقد الذكاء عظيم المهارة فكان يضع حذاءه واثوابه بنفسه من جلود الحيوان، ودرس النجوم، وشرّح الحيوانات حية وميتة، حتى وصل في هذا النوع من المعرفة إلى أرقى ما وصل اليه أعظم المشتغلين بعلم الاحياء ثم إنتقل من العلوم الطبيعية إلى الفلسفة وعلوم الدين، واثبت لنفسه وجود خالق قادر على كل شيء، ثم عاش معيشة الزهاد، وحرم نفسه أكل اللحم، وإستطاع أن يتصل إتصالاً روحيًا بالعقل الفعاّل.

وأصبح حي بعد أن بلغ التاسعة والأربعين من العمل متأهبا لتعليم غيره من الناس، وكان من حسن الحظ أن متصوفا يدعى أسال إستطاع في سعييه إلى الوحدة أن يلقي بنفسه على الجزيرة، فالتقى بحي، وكان هذا أول معرفة له بوجود بني الإنسان.

وعلمه أسال لغة الكلام وسرّه أن يجد أن حيًا قد وصل دون معرفة أحد إلى معرفة الله، وأقر لحيّ بما في عقائد الناس الدينية في الأرض التي جاء منها من غلظة وخشونة، وأظهر له أسفه على أن الناس لم يصلوا إلى قليل من الأخلاق الطيبة إلا بما وعدوا به من نعيم الجنة، وما أنذروا به من عقاب النار وإعتزم أن يغادر جزيرته ليهدي ذلك الشعب الجاهل إلى دين أرقى من دينهم وأكثر منه فلسفة.

فلما وصل إليهم يدعوهم في السوق العامة إلى دينه الجديد وهو وحدة الله والكائنات، لكن الناس إنصرفوا عنه أو لم يفهموا أقواله، وأدرك أن الناس لا يتعلمون النظام الإجماعي إلاّ إذا مزج الدين بالأساطير والمعجزات أو المراسيم والعقاب والثواب الإلهين، ثم ندم على إقحامه نفسه فيما لا يعنيه، وعاد إلى جزيرته وعاش مع أسال يرافق الحيوانات الوديعة والعقل الفعال وظّلا على هذه الحال يعبدان الله حتى الممات.[1]

[1] -www.devoir-scolaire.com/2015/ بتوقيت غرينيتش،01:54 اخر تحديث

تعتبر من روائع الفلسفة في رواية منطقية، يصل فيها حي بطريقة التفكير البدائية البسيطة التي مارسها إلى عدة إستنتاجات بطريقة علمية مدهشة كان يسوقها ابن طفيل، أجوبة عبقرية لأسئلة عبقرية.

إن إستحضار عالم الخيال أو الرمز لعرض الأفكار الفلسفية أو للتعبير عنها في قالب فني من الأساليب التي عهدتها الفلسفة منذ نشأتها، وفي ذلك امثلة لا تحصى فيها على سبيل الذكر إستخدام أفلاطون للنزهات الإغريقية وللأساطير إطارا أو على سبيل الإستشهاد في محاوراته مع طيماوس وكريتياس من الشعر والشوانع تزو من القصص قوالب لعرض الفلسفة الطاوية، وهنا لابد من التنويه بما وصلت إليه العناية بالقالب الفني جماليا وتقنيا لدى إبن سينا في قصيدة النفس، والمعري في رسالة الغفران، بحيث وصلت هذه الأعمال فنيا إلى المستوى الفني الرّاقي فلسفيا حتى كانت قصة حيّ إبن يقظان القمة، ولاشك أن المقومات التي نشأت وقامت عليها القصّص الفلسفية الأوروبية إبتداء من القرن الثامن عشر حتى اليوم من فولتير و روسو وسارتر وكامو وغيرهم مثلا تنتمي إلى تلك المقومات التي حبكت عليها قصّة بن يقظان[1]

2-قصة السندباد البحري:

كان سندباد ابن أحد التجار المشهورين في مدينة بغداد له صديق إسمه حسن وهو فتى فقير يوزع جزر الماء، بينما سندباد يكون فتا غنيا ويسكن في بيت كبير مع ذلك هما نعم الأصدقاء، سندباد يهوى المغامرات وتستهويه قصّص عمّه البحار علي، الذي أحضر له طائرا غريبا يتكلم، هذا الطّائر هو «ياسمينة" يهرب السندباد ويبحر مع عمّه حسن لكنه ونتيجة لحوت عملاق قد هبطوا عليه اعتقادا منهم انه جزيرة...

ينفصل سندباد عن عمّه وتبدأ مغامرات سندباد لوحده مع عصفورته المتكلمة ياسمينة...

يتعرض سندباد لعدة مواقف منها المثير والمخيف ويواجه مخلوقات غريبة مثل طائر العنقاء العملاق والمارد العملاق ذا اللّون الأخضر الذي يأكل البشر، يتعرف سندباد على صديقين أولا علي بابا

[1] - أنور ابن بندورة، مقال الابعاد الفلسفية في قصة حي بن يقظان، القدس المحتلة /فلسطين، الاحد 22مارس 2009،

وهو شاب يعمل لدى اللصّوص، هذا الشاب يجيد إستعمال الخنجر والحبل يقرر ترك حياة اللصّوص والإنضمام الى سندباد حبا في المغامرات والعمّ علاء الدين وهو شيخ كبير السن لكنه يهوى المغامرات ويلتحق بسندباد ويصبحون ثلاثي من المغامرين ويواجهون بعض المصّاعب مع المشعوذين بولبة والعجوز ميساء وغيرهم ، لكن في كل مرة يتمكن الخير من الإنتصار على الشر بذكاء، سندباد و حكمة علاء الدين واقدام علي بابا يتمكنون من التغلب على المشعوذين ومن ثم التغلب على زعيمهم الجن الأزرق وتابعته الشريرة المرأة التي لها ظل بقرة، ويفك السحر ويعودان والدي يسمينة الى شكلهما الطبيعي بعد ان عادت ابنتهما يسمينه لشكلها الطبيعي، والد يسمينه كان واليا في بلد اخر ويسمينة كانت اميرة...وينقذ سندباد الناس الذين حولهم الزعيم الأزرق الى حجارة ومن بينهم والديه وعمه علي بعد هذا النصر سندباد يكون قد تعود على حياة المغامرات فيعود هو وعلي بابا وعلاء الدين الى السفر من جديد بحثا عن المغامرات..

يتمكن السندباد في نهاية المطاف من التغلب على جميع المشعوذين، بولبة وزمرته والعجوز الشمطاء ميساء وأيضا يتمكن من التغلب على زعيم الجن، الجن الأزرق والذي حول العديد من الناس إلى حجارة من بينهم والدي سندباد فينكسر الحجّر ويعود الجميع إلى طبيعتهم ووالد يسمينه يستمر في رحلاته وأسفاره[1].

الخيال في هذه الرّحلة الشيّقة (السندباد البحرّي) حاضر ماثل لما فيها من الغرائب والمفارقات التي رافقت سندباد من أول وهلة الى نهايتها بصحبة علاء الدين وعلي بابا، والأهوال التي لاقوها في طريقهم من الحيوانات الخيالية التي لا وجود لها ، كالعنقاء والطائر الذي كان يتبعه وهو يتكلم، كل هذا لأجل شد المتلقي ليسبح بمخيلته في عالم إفتراضي لا أساس له من الواقع، والهدف منه إثراء الخيّال في السّرد العربي لأجل الإمتاع والتشويق، وهذه الرّحلة كمثيلاتها من القصص الخيالية التي تضمنتها الف ليلة وليلة، أتى فيها من "تضخم الأشياء الذي يعود إلى سعة المخيلة الجغرافية للقاص وإلى تصوير الممالك البعيد بكل صّور الغرائبيّة، وإلى جعل بحيّرة ماء صغيرة محيطًا ، وسمكة صغيرة حوتًا، وغولا واحدا جيشا من الغيلان، وتعكس المخيلة الجغرافية حاجة إجتماعية ترتبط أساسًا

[1] ملخص مغامرات سندباد، السبت، 31ديسمبر2011، الساعة 11:48 -zaia.hooxs.com

بالتجارة وتوسيع الأسواق ومد خطوط السيطرة". سواء كان ذلك سيطرة التّجار على البحّار وحركة السّفن أو سيطرة السّارد على المستمع[1].

ثانيا:: تجليّات الغرائبية في رحلة ابن بطوطة

إن الأساس في الرّحلة أن تكون واقعية وذلك بقيام الرّحالة بتنقله بجسده من مكان لآخر تتم فيه معاينة المشاهد والشّخصيات كاشفا من خلالها لجملة من العادات والتّقاليد التي يتسم بها كل مجتمع من المجتمعات التي يحتك بها الرّحالة خلال رحلته لكن مع كونها تتسم بطابع واقعي فلا تعدم من وجود صبغة خيالية يسبح فيها الكاتب بتفكيره بعيدا عن واقعه وعالمه الى عالم آخر أقرب إلى الخيّال منه إلى الواقع، ذلك لأن كثيرا من النّصوص الرّحلية التي كتبها (الرحالة) لا تخلو من سرد قصّص وحكايات مفارقة للمألوف ذات معطى غرائبي يفعل عنصر التّشويق لدى القارئ تفعيلاً يجعله ينجذب إليه تارةً ويَنْفَكُ عنه تارة أخرى.

ومن بين هذه الرّحلات التي اشتهرت إشتهارا فاقت به معظم الرّحلات الغريبة لما بلغته من الصيت في مشارق الأرض ومغاربها رحلة ابن بطوطة المسماة "تحفة النضار في غرائب الأمصار" والتي أودع فيها تفاصيل رحلته الممتدة قرابة تسع وعشرين سنة والتي أورد فيها أمورا مهمة تمثلت في ربط المألوف باللّا مألوف والخروج من الطبيعي إلى غير الطبيعي ليحشد فيها أكبر قدر ممكن من المفارقات التي من شأنها أن تشد المتلقّي وتدفعه إلى الإستمتاع بما يقصه عليه من مشاهدات.

❖ ذكر مختارات من غرائبية رحلة ابن بطوطة

أ- غرائبية دينية:

- **ذكر السحرة الجوكية:**

[1]- ياسين النصير: المساحة المتخفية ،نقلا عن رحلة السرد ،السندباد يعود من بعيد، عليمة قادري، الطبعة الاولى2013،الناشر دار الكتابة للطباعة والنشر والتوزيع جميع الحقوق محفوظة للناشر، ص17.

بعث إليّ السلطان يوما وأنا عنده بالحضرة فدخلت عليه، وهو في خلوة، وعنده بعض خواصه ورجلان من هؤلاء الجوكية، وهم يلتحفون بالملاحف، ويغطون رؤوسهم لأنهم ينتفونها بالرماد كما ينتف الناس آباطهم، فأمرني بالجلوس، فجلست، وقال لها: إن هذا العزيز من بلاد بعيدة فأرياه ما لم يره، فقالا: نعم، فتربع أحدهما ثم إرتفع عن الأرض حتى صار في الهواء فوقنا متربعًا، فعجبت منه وأدركني الوهم فسقطت إلى الأرض، فأمر السلطان أن أسقى دواء عنده، فأفقت وقعدت، وهو على حال متربع، فأخذ صاحبه نعلا له من شكارة كانت معه، فضرب بها الأرض كالمغتاظ، فصعدت الى ان علت فوق عنق المتربع، وجعلت تضرب في عنقه، وهو ينزل قليلا قليلا حتى جلس معنا، فقال لي السلطان: إن المتربع هو تلميذ صاحب النعل، ثم قال: لولا إني أخاف على عقلك لأمرتهم أن يأتوا بأعظم مما رأيت. فانصرفت عنه. وأصابني الخفقان ومرضت حتى أمر لي بشربة أذهبت ذلك عني.[1]

ولنعد لما كنا بسبيله، فنقول: سافرنا من مدينة برون إلى منزل امواري، ثم إلى منزل كجرا، وبه حوض عظيم طوله نحو ميل، وعليه الكنائس فيها الأصنام قد مثل بها المسلمون، وفي وسطه ثلاث قباب من الحجارة الحمر على ثلاث طباق، وعلى أركانه الأربعة أربع قباب، ويسكن هنالك جماعة من الجوكية، وقد لبدوا شعورهم، وطالت حتى صارت في طولهم، وغلبت عليهم صفرة الألوان من الرياضة. وكثير من المسلمين يتبعونهم ليتعلموا منهم، ويذكرون أن من كانت به عاهة من برص أو جذام يأوي إليهم مدة طويلة فيبرا بإذن الله تعالى.

وأول ما رأيت هذه الطائفة بمحلة السلطان طرمشيرين ملك تركستان، وكانوا نحو الخمسين، فحفر لهم غار تحت الأرض، وكانوا مقيمين به لا يخرجون إلا لقضاء حاجة.[2]

وجه الغرائبية فيها:

الجوكية: طائفة هنية تجري على أيديهم، خوارق واحوال سحرية، أضرب في الغريب، يفارقون بها العادة في افعالهم وسلوكهم نذكر منها ما جاء في رخلة ابن بطوطة جملة من عجائبهم في الاكل والشرب والطيران في الهواء حيث يقول:" وهؤلاء الطائفة تظهر عجائب منها ان أحدا يقيم الأشهر لا يأكل

[1]- كرم البستاني، رحلة ابن بطوطة، دار بيروت للطباعة والنشر،طبعة 1980م، ص، 544،545.

[2]- رحلة ابن بطوطة مرجع سبق ذكره ،ص 545.

ولا يشرب..." فحالة كهذه ادعي للاستغراب فليس هناك من الناس من يصبر على الانقطاع، عما يقيم صلبه من القوت والشراب، مدة طويلة دون أن يلحق به أدنى تلف أوهلاك، كما أنهم تحفر لهم حفر تحت الأرض وتبني عليها فلا يترك لهم إلا موضع يدخل منه الهواء، ويقيم بها الشهور، بل إنهم على حد من زعم أنه يمكث سنه كاملة وهو على تلك الحالة، وهذا من عجيب صنعهم، إذ كيف يقوي شخص كائنا من كان على فعل ذلك مع إمتداد لمدة تبلغ سنة كاملة دون أن يتغير حالهم، أو ينفذ صبره، ومن عجيب أمرهم أيضا، مما يدعو للذهول والدهشة، التي أوجدتها غياب الأسباب الظاهرة والحسية، المفضية لهذه المشاهد التي رآها منهم، ابن بطوطة وغيره بأمّ عينه، فقديما قالوا: (إذا ظهر السبب بطل العجب). ما نّص عليه ابن بطوطة" ومنهم من ينظر الى الإنسان فيقع ميتا من نظرته. وتقول العامة: انه إذا قتل بالنظر وشق عن صدر الميت وجد دون قلب. ويقولون: أكل قلبه. وأكثر ما يكون هذا في النساء، المرأة التي تفعل ذلك تسمى كفتار".

وهذا الصنف من الجوكية يبلغ سحرهم، مبلغا يلحق الضرر، بالغير بمجرد النظر اليه، يخر ميتا وهذا من أغرب الغريب، الذي يثير الدهشة والإستغراب الذي يطرح، تساؤلات عديدة يحاول القارئ من خلالها فك شفرة الملفوظ، لكل قصة غريبة من القصص التي هي اشبه بالخيال منها بالواقع، فان العقل ينفي أن يكون الموت، حادثا إلا بالواسطة الحسية وهذه الوسائط المادية معلومة ومدركة حسا وعقلا، كالسيف والسكين، والسّم والرّمح...الخ

هذا المعطي الغرائبي المحفز لعنصر التّشويق لدى الرّحالة الرائي أو الملتقى بعّده يتفاوت فيه، الملتقيين لنصه تفاوت كبيرا مرّده إلى المعرفة وسعة الإطلاع على أسرار وخفايا الأحداث الآّ مألوفة.

- **حكاية المشعوذ:**

وفي تلك الليلة حضر أحد المشعوذة، وهو من عبيد ألقان، فقال له الأمير: أرنا من عجائبك، فأخذ كرة خشب لها ثقب فيها سيور طوال فرمى بها الى الهواء، فارتفعت حتى غابت عن الأبصار، ونحن في وسط المشور أيام الحرّ الشديد، فلمّا لم يبق من السّير في يده الّا يسير امر متعلّمًا له، فتعلق به، وصعد في الهواء إلى أن غاب عن أبصارنا، فدعاه فلم يجبه ثلاثا، فاخذ سكينا بيده كالمغتاظ

وتعلق بالسير الى أن غاب أيضا، ثم رمى بيد الصبي إلى الأرض، ثم رمى برجله، ثم بيده الأخرى، ثم برجله الأخرى، ثم بجسده، ثم برأسه، ثم هبط، وهو ينفخ وثيابه ملطخة بالدم، فقبّل الأرض بين يدي الأمير، وكلمّه بالصيني، وأمر له الأمير بشيء، ثم انه اخذ أعضاء الصبي فالصق بعضها ببعض، وركضه برجله، فقام سويا، فعجبت منه واصابني خفقان القلب كمثل ما كان أصابني عند ملك الهند حين رأيت مثل ذلك، فسقوني دواء أذهب عني ما وجدت.[1]

وجه الغرائيبية فيها:

جاءت هذه القصة في سياق الغرائب التي سّردها الرّحالة في رحلته أثناء تطلعه على أعجب ما في العادات التي يمارسها السّحرة والمشعوذين من خوارق للمألوف وتجاوز حد اللاّمعقول، في إمكانية وقوع مثل هذه الحكاية في الواقع المعهود.

نجد إبن بطوطة قد برع في إمكانية توصيل الحكاية بكل ما تحويه من إستهواء، للشخصية المتلقية لعالم الخوارق الذي كسر مألوف العادة، ومس بنية المقدس والمدنس، واوقعه في أحضان الريبة والإضطراب من حيث التصنيف. والإعتقادي لمثل هذه القصص، ذلك لأن هناك قصّص أخرى شبيهة بما حدث لهذا المشعوذ، ولم يجعل الكتاب المقدس (القرآن الكريم) من السّحر، بل الحقها بالمعجزات التي أجراها الله على أيدي أنبيائه، من أمثال عزيّر الذي مرّ على قرية وهو يحدث نفسه عن إمكانية إحياء أهلها بعدما أهلكوا، لأنها كانت حين المرور خاوية على عروشها، فأماته الله مائة عام ثم أحياه هو وحماره إلّا أنه قام كالمستيقظ من نومه قبل حماره الذي أكلت الأرض منه اللّحم وسائر ما يكسو العظام، فأراه الله كيف تتجلى قدرته في إحياء الموتى بأم عينه شيئًا فشيئًا لقوله تعالى:" **اوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.** **الاية(259).**

[1]- رحلة ابن بطوطة ، نفس المرجع السابق ص641.

ومن بين المعجزات معجزة إبراهيم الخليل الذي شاهد الطير التي أمر بذبحها وتقطيعها وخلطها ببعضها وتوزيعها على أربعة مواضيع شتى كيف أنها استعادت الحياة، وأخذ كل جزء منها يعود إلى موضعها الأصلي، بعد ان أمسك الرؤوس بيده، تأتيه كل فريسة براسها فأخذه مركبا كأول مرة لقول تعالى:" **وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ.الاية(260)**

وكذلك ما جرى للسيد المسيح عيسى بن مريم من احياء الموتى، وابرائه للمرضى، لقوله تعالى:" **وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ.) 49(الاية**

كل هذا والمتلقي يقف متأرجحا في تصنيفه الاعتقادي بين السّحر والكرامة والمعجزة في أيهم يتم إلحاقها، مع ما فيها من الإيغال في الغرائبية إلى حدّ الإستحالة، ودخولها في إلا منتمي الإعتقادي للموروث العربي الإسلامي، فالكرامة والمعجزة لا تكون إلا لمن أراد أن يثبت صدق ما يدعيه من أقوال أو أفعال على سبيل التحدي والمعارضة، أما هؤلاء المشعوذة الذين رآهم الرّحالة فلا سبيل لفعل ذلك سوى إظهار القدرة على كسر المألوف.

- **حكاية عجيبة:**

ذكر ابن بطوطة في حديثه عن الصّبي بأنه" ولما كنت بصّين كلان سمعت انّ بها شيخا كبيرًا قد أناف على مائتي سنة، وانه لا يأكل ولا يشرب ولا يحدّث ولا يعاشر النساء، وأنه ساكن في غار بخارجها يتعبد فيه، فتوجهت إلى الغار فرأيته على بابه، فهو نحيف شديد الحمرة عليه أثر العبادة ولا لحية له، فسلمت عليه فأمسك بيدي وشمها وقال لترجمان: "هذا من طرف الدنيا كما نحن من طرفها الآخر" ثم قال لي: " لقد رأيت عجبا: أتذكر قدومك جزيرة التي فيها الكنيسة والرّجل الذي كان بين الأصنام، وأعطاك عشر دنانير من الذهب؟"، فقلت : نعم، فقال: أنا هو، فقبّلت يده، وفكر ساعة

ثم دخل الغار فلم يخرج إلينا، كأنه ظهر منه الندم على ما تكلم به، فتّجهمنا ودخلنا الغار عليه فلم نجده، ووجدنا بعض أصحابه، ومعه بوا ليشت من الكاغط ، فقال: " هذه ضيافتكم فإنصرفوا" فقلنا: له ننتظر الرّجل، فقال: لو أقمتم عشر سنين لم تروه فإن عادته إذا إطلع أحدا سرا من أسراره لا يراه بعد الإطلاع، ولا تحسب أنه غاب عنك بل حاضر معك فعجبت من ذلك فأنصرفت، فأعلمت القاضي وشيخ الإسلام وأوحد الدين السنجاري بقضيته فقالوا:"كذلك عادته من يأتي إليه من الغرباء، ولا يعلم أحدا مما ينتحله من الأديان والذي ظننتموه أحد أصحابه هو هو.

فيما حكاه أوحد الدين السنجاري عن ذلك الشيخ، قال:" دخلت عليه الغار فأخذ بيدي، فخيل لي أنه يقصر عظيم وانه قاعد فيه على سرير وفوق رأسه تاج وعلى جانبه وصائف الحسان والفواكه تتساقط في أنهار هنالك وتخيلت أني أخذت تفاحة لآكلها فإذا أن بالغار وبين يديه وهو يضحك مني، وأصابني مرض شديد لازمني شهور فلم أعد إليه"

وأهل تلك البلاد يعتقدون أنه مسلم لكنه لم يره أحدا يصّلي، أمّا الصّيام فهو صائما أبدا، وقال لي القاضي:" ذكرت له الصّلاة ببعض الأيام، فقال لي:" أتدرى أنت ما أصنع؟ أن صّلاتي غير صّلاتك" وأخباره جميعها غريبة.

كما أن ابن بطوطة ذكر أثناء سّرده لخبر هذا الشيخ بأنهم أخبروه أنه غاب في هذه البلاد نحو خمسين سنة ثم قدم عليهم منذ سنة، وكان السلاطين والأمراء الكبار يأتونه زائرين فيعطيهم التحف ويأتيه الفقراء كل يوم ويعطيهم لكل أحد على قدره وليس بالغار الذي هو به ما يقع عليه البصر أنه يحدث عن السنين الماضية، ويذكر النبي صلّى الله عليه وسلم لكنت معه لنصرته.[1]

وجه الغرائبية فيها:

إن هذه الشخصية العجائبية في سحرها وعجائبيتها من خلال تجاوزها الواقعية لتدخل الخارق بإفتتان آسر، وتلج عالمِا عصيًا على الوصف والتصنيف.

[1]- طلال الحرب: رحلة ابن بطوطة تحفة النظار في غرائب الامصار، الناشر:دار الكتب العلمية-بيروت، ط،5،سنة2011م، ص 636

فهذا الشيخ كان لا يأكل ولا يشرب ولا يحدث ولا يباشر النساء، فشخصية كهذه تمتنع عن الأكل والشرب ويمتد بها العمر إلى مئاتي سنة فمن كان هذا وصفه في عصر كعصر ابن بطوطة إصتبغه بصبغة، المألوف أخرجته عن دائرة الشخوص العاديين، مما جعل الرّحالة نفسه يستغرب أقواله وأحواله من علمه بحال إبن بطوطة، ومن أيّ الأصقاع قّدم؟ ومع من إلتقى به من الناس، وفي أيّ مكان؟ وماذا أعطاه؟ كل ذلك نبّأه به، وكان حوارًا غريبًا من نوعه، يجعل المتّلقي في حالة من الذّهول والدّهشة تشّده إلى القراءة ومزيد من التّشويق إلى معرفة طبيعة الشّيخ المختلف في أصل ديانته، كما أننا نجد إبن بطوطة كحالته مع جميع القصص والحكايات الغريبة التي ملأ بها رحلته، يقف على معظمها موقع القّبول، وذلك لمنزعه الصّوفي فإن كثيرا من القصص والشخصيات تحل منه محل الموافقة والتقديس، وأغرب قيمة في السّرد، كون أن الرجل الذي ظنّه إبن بطوطة بعض أصحاب الشّيخ، فوجئ بانه هو نفس الشّيخ الّذي تحاور معه في البداية، ولم تقتصر الغرائبّية عند ذلك الشّيخ بل تجاوزت الى المكان الذّي كان يقيم فيه، فإن الناس الذين يفدون لزيارة رجاء البركة هم من شّتى الأصناف فتأتيه السلاطين والأمراء الكبار، فيناولهم التّحف، ويقدم اليه الفقراء فيعطيهم لكل واحد منهم على قدره، مع أن الغار ليس فيه شيء يقع عليه البصر من تلك التّحف والأعطيات فمن غير الطّبيعي أن تجرى كل هذه المجريات لشّيخ منعزل في غار مقفر، مما يُفعل عنصر التّشويق والدّهشة والغرابة في مثل هذه القصّة.

وهذه الشخصية العجائبّية ولّدت طاقة تخييليه، فسحت المجال أمام القارئ كي يقع في الإلتباس والإستغراب والحيرة، من مكوناتها الغير إعتيادية وصفاتها الخارقة للعادة.

ب –غرائبية العرفية:

- **حكاية أهل الهند الذين يحرقون أنفسهم بالنار:**

ولما إنصرفت عن هذا الشيخ رأيت الناس يهرعون من عسكرنا، ومعهم بعض أصحابنا، فسألتهم: ما الخبر؟ فأخبروني أنّ كافرًا من الهنود مات، وأُجّجت النار لحرقه، وإمرأته تُحرق نفسها معه. ولما إحترقا جاء أصحابي وأخبروا أنّها عانقت الميت حتى إحترقت معه، وبعد ذلك كنت في تلك

البلاد أرى المرأة من كفّار الهنود متزيّنة، راكبة والناس يتبعونها من مسلم وكافر، والأطبالُ والأبواقُ بين يديها، ومعها البراهمة، وهم كبراء الهنود، وإذا كان ذلك ببلاد السلطان استأذنوا السلطان في إحراقها فيؤذن لهم، فيحرقونها.[1]

وجه الغرائبية فبها:

إن بنية الخبر السردّية بسيطة بكل عناصرها من انفتاح السرد في الخبر الى إنغلاقه، فالحدث الرئيسي في هذا الخبر هو كيف تشيع جنازة الموتى في الهند وماهي مراسيمها؟ إنّ إبن بطوطة نقل لنا مشاهد هذا لأنه وجّد فيه غرابة خارجة عن المألوف، كما نلاحظ فإن الحدث بسيط ومركز يهيمن عليه صوت السّارد والخطاب المسرود، ولا حضور لأصوات الشخصيات أو حوار بينهم بل هناك إستحضار لسلوكهم وسماتهم، كخروج المرأة المتزينة راكبة في موكب من الطبول والأبواق ومعها كبراء الهند لكي يحرقونها بعد وفاة زوجها، كما أن محدودية صيغ الخطاب مرتبطة بالحدث ومدى بساطته يضاف إلى ذلك أن الزمن معدوم، إن الزمن معدوم، إن النمطية صفة ترتبط بالسرد وأنواعه في علاقة ثلاثية الأبعاد: الواقعي والتَخْيلي والتَخَيُلي، وذلك وفق سمات طبيعية بحضور العناصر التالية: الشّخصيّة والزمن والفضاء واللغة وعلاقتهما بالواقع أي الذي حدث تاريخيًا.

وقد تفارق الواقع عبر المحاكاة التخيلية أو عبر مفارقتها للممكن وبالتالي صارت في حيز العجب هذا ما نلمسه في جزء بسيط من الحكايات التي وردت في الرحلة ليخلق الرّحالة نوعا من الإثارة والإستجابة لدى المتلقي، وبالرغم من ذلك فلم تخلل بمصداقية الخبر وبالتالي الرحلة، فالخبر الواقعي يقدم ما حدث بالفعل وبالتالي يرتبط بالزمن عبر التاريخ ويقوم السارد بنقله للملتقى.

كما أشرنا فالرّحلة شريط تسجيلي لأحداث شاهدها الرّحالة بأم عينه فهي تنتمي إلى الواقع مما يجعل منها سردًا قابلاً للتداول في أزمنة متباينة وأمكنة مختلفة تخبر عما حصل في الواقع، لذلك نجد، أن نسبة حضور الخبر في رحلة ابن بطوطة أخذت مجالًا أوسع.[1]

[1]- كرم البستاني، رحلة ابن بطوطة ، مرجع سبق ذكره،ص،411.

والخبر الذي جاء به ابن بطوطة، في هذا السياق فيه من فاعلية التشويق ما يجعل المتلقي في إنجذاب لمثل هذه القصّة الغريبة، إذ يندفع سلوك شخصية الزوجة إلى إقتحام النار والتحول فيها دون أي تردد أو تراجع وهذا من غريب عادات الهند وتقاليدهم، لولا وجود دافع سلوكي وارتباطه إرتباطًا وثيقًا بمقوّم أخلاقي تجاه الأزواج وهو: الإخلاص والوفاء فمن الخسّة والدناءة أن تبقى الزوجة حيّة ماكثة بعد موت زوجها، يرمقها المجتمع بنظرة الإزدراء والإحتقار والتأويل الرّمزي للدخول في النار والإحتراق بها، هو الإصطباغ القداسي للعنصر الناري لدى المجتمع الهنّدي والفارسي على حدِ سواء.

- **حكاية آكلي خادمة السلطان:**

قَدمَت على السلطان مَنْسَى سليمان جماعةٌ من هؤلاء السودان الذين يأكلون بني آدم، معهم أميرٌ لهم، وعاداتهم أن يجعلوا في آذانهم أقراطًا كبارًا، وتكون فتحةُ القرط منها نصف شبر، ويلتحفون في ملاحف الحرير، وفي بلادهم يكون معدن الذهب، فأكرمهم السلطان، وأعطاهم في الضيافة خادمة، فذبحوها وأكلوها ولطّخوا وجوههم وأيديهم بدمها، وأتوا السلطان شاكرين.

وأُخبرتُ أن عادتهم متى ما وفدوا عليه أن يفعلوا ذلك، وذُكر لي عنهم أنّهم يقولون إن أطيب ما في لحوم الآدميات الكفّ والثديُ.[2]

وجه الغرائبية فيها:

الغرابة في السرد الحكائي تتمثل في توصيف إبن بطوطة لهذّه الطائفة التي قامت بذبح الجاريّة، وأكلها وهذا ما يدعوا الى التقزّز والإشمئزاز، فإن أكل لحوم البشر إشترك فيه طوائف وملّ من مختّلف الشعوب والقبائل، بل حتّى من اليهود كانوا في إحتفالهم بعيد الفصح يقومون بخطف الأطفال الأغيار.* ووضعهم ببراميل خاصّة وإخراج دم الطفل وتجميعه في إناء، ونقله الى الموضع الذي تعد فيه

[1]- ينظر: منصور نعيمة:جماليات الخطاب في رخلة ابن بطوطة،دراسة تحليلية تطبيقية، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستر،حامهة وهران,السنة2011/2010،ص59،60.

*- الأغيار: هو اسم اطلقه اليهود على غير اليهودي

[2]- منصور نعيمة: نفس المرجع السابق، ص،693

الفطائر ليصنع بها، وهو خبزهم المقدّس، وهذه الرواية المتداولة عندهم والمتكررة الحدوث لا يقوم بها اليهود الاّ خلسة، وهذا ما يبين أن أكل لحوم البشر، أو شرب دمائهم عادة منتشرة ليست مقتصرة على السُّودان فقط، والأغرب منه في هذه القصّة المثيرة هو كيف أن السلطان دعّمهم، وساعدهم في نيل مبتغاهم بطريقة مرضية بلغت الى درجة الإكرام، وهذا ما ذكره إبن بطوطة أثناء مشاهدته للسلطان منسى سليمان مع هذه الطائفة أثناء اقامته بمالي، وأنه أُخبر بأنهم قالوا إن أطيب ما في لحم الآدميات: الكفّ والثّدي.

- **حكاية عجيبة رأيتها بمجلسه:**

ورأيت في مجلس هذا السلطان رجلاً بيده سكّين المسفر قد وضعه على رقبة نفسه وتكلّم بكلام كثير لم أفهمه، ثمّ أمسك السكّين بيده معًا وقطع عنق نفسه، فوقع رأسه لحدّة السكّين، وشدّة إمساكه بالأرض، فعجبتُ من شأنه. وقال لي السلطان: أيفعلُ أحدٌ هذا عندكم؟ فقلتُ له: ما رأيتُ هذا قطّ، فضحك، وقال: هؤلاء عبيدنا يقتلون أنفسهم في محبّتنا، وامر به فرفع وأحرق، وخرج لإحراقه النوّاب وأرباب الدولة والعساكر والرّعايا، وأجري الرزقُ الواسعُ على أولاده وأهله وإخوانه، وعظّموا لأجل فعله.

وأخبرني من كان حاضرًا في ذلك المجلس أن الكلام الذي تكلّمَ به كان تقريرًا لمحبّته في السلطان، وأنه يقتلُ نفسه في حبه، كما قتل أبوه نفسه في حبّ أبيه، وجدُّه نفسه في حبّ جدّه.[1]

وجه الغرائبية فيها:

مما إقتضاه الغريب من الدّهشة والإنفعال، وإثارة عنصر التشّويق للأحداث المتواترة عن تقاليد الهند وعاداتهم العجيبة التي ساقها ابن بطوطة أثناء مكوثة في الهند عند أحد السلاطّين بسرد طبيعة معاملة العبيد والخدم الغريبة المتشخصة في قيام هؤلاء العبيد بذبح أنفسهم بأنفسهم بطريقة بشعة، وهو أن يضع سكينا حادة على رقبته ويحزها بها والسلطان ينظر ويبارك هذا الفعل لأجل عشقهم وحبهم للسلطان، وتعطي مفارقة إعتقادية بين الأديان، والخروج من الولاء المشروط إلى الولاء

[1]- رحلة ابن بطوطة: مرجع سبق ذكره، ص، 624

المطلق لمن له سلطة عليك، ففي الدين الإسلامي الأمر فيه للسلطان مشروط بطاعة الله إذ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، وهذا الاندفاع غير مبرّر لدى من له أدنى مسكة عقل من عقلاء الأمم والشعوب، هو الذي حمل إبن بطوطة على التساؤل بقوله: فعجبت من شأنه وأعطى عدم توافق بين نمطين مختلفين لمجتمعين متباينين وهذا التباين اثري معنى الغرائبّية وأكسبها مجالاً فسيحًا، حيث أن هذه القصة الهنديّة، التّي شاهدها الرّحالة اتَّسمت بطابع إلاَّ مألوف والمتمثل في النمط السّلوكي الغريب الذي كان العبيد يمارسونه إزّاء سلاطينهم، فليس من المعقول أن يقدم إنسان بمحض أرادته، وبخالص إختياره على الإنتحار بتلك الطريقة البشعة، من أجل إرضاء الغير والمستخلص ممّا سقناه من الخبر أنّ بطوطة شاهد من الغريب ما يندُّ عن الحصر، ويربوا على العدد الضابط لكثير من المشاهدات التي تدعوا إلى الإثارة والتشويق.

ج- الغرائبية الطبيعية:

- **حكاية الشجرة العجيبة الشأن التّي بإزاء الجامع**

ورأيت أنا بإزاء الجامع شجرة خضراء ناعمة تشبه أوراقها أوراق التين إلّا أنّها ليّنة، وعليها حائط يطيف بها، وعندها محراب صلّيت فيه ركعتين، وإسم هذه الشجرة عندهم دَرَخْت الشهادة، وأخبرت هنالك انّه إذا كان زمان الخريف من كلّ سنة تسقط من هذه الشجرة ورقة واحدة بعد أن يستحيل لونها الى الصفرة، ثّم إلى الحمرة، ويكون فيها مكتوبا بقلم القدرة: لا إله إلاّ الله مُحَّد رسول الله. وأخبرّني الفقيه حسين وجماعة من الثقاب أنّهم عاينوا هذه الورقة وقرأوا المكتوب الذي فيها، وأخبرني أنّه إذا كانت أيّام سقوطها قعد تحتها الثقات من المسلمين والكفّار، فإذا سقطت أخذ المسلمون نصفها، وجعل نصفها في خزّانة السلطان الكافّر وهم يستشّفون بها للمرضى.

وهذه الشّجرة كانت سبب إسلام جد كويل الذي عمّر المسجد والباين، فإنه كان يقرأ الخط العربي، فلمّا قرأها وفهم ما فيها أسلم وحسُن إسلامه وحكايته عنهم متواترة.

وحدّثني الفقيه حسين أن أحد أولاده كفّرة بعد أبيه وطغى وأمر بإقتلاع الشجرة من أصلها فاقتلعت، ولم يترك لها أثر، ثم إنها نبتت بعد ذلك، وعادت فأحسن ما كانت عليه، وهلك الكافر سريعا.[1]

وجه الغرائبية فيها:

ترجع العجائبية إلى مرجعيات شتّى تختلف في طبيعتها، تعتبر بمثابة الحضن الحاوي لها، والظرف المتضّمن لها، ومن هذه المرجعيات الطبيعية المفارقة، وذلك لأنه توجد أسرار وخفايا في هذه البسيطة، بل في كل الكون الفسيح...كالحجر الذي سقط من السماء، والشجرة التي رآها الرّحالة فاستغرب تغيير الوانها وأوراقها بعد سقوط الخضرة إلى الصفرة إلى الحمرة، دون أن يذكر السب الذي جعلها متغيرة الألوان، وممّا شاهده من الغريب كتابة "لا إله الّا الله وأن مُحَمَّد رسول الله" وأن الثقات من المسلمين والكفّار يجتمعون تحتها ويقتسمونها نصفين، نصف بين المسلمين والكفّار ونصف يحال إلى خزانة السلطان الكافّر، وهم يستشفون بها المرضى، يستشفى من هذا الوصفي قداسة الشجرة وبركتها الظاهرة ، والذي جعل هذه القصّة وامثالها من الأشياء والأماكن والأشخاص تشغل حيّزا كبيرا في مساحة النّص الرّحلي عند إبن بطوطة هو تشبعه بالمنزع الصّوفي، ووجود مكانة بارزة للمقدس فيه، فهذه الشّجرة دلالة على النّماء والفائدة المرجوّة والمتمثلة في كونها شّفاء لكثير من الأمراض، لكنها سرعان ما تتحول الى الإهلاك وإلحاق التلف والعطب لمن قطعها.

المسار السّردي هنا تغير بفعل منطق العجّيب القائم على التحوّل، بمعنى الإنتقال من حال الى حال، وهكذا تغيّرت البرّمجة الذهّنية لدى المباشرين لها بين مؤيّد لها راج لنفعها، وبين معارض لها قاطع لشأفتها القدرات الخارقة في كلمة التوحيد التي ترآءت في الأوراق المتساقطة، فعلت عنصر "التبئير" فقد أحالته الى المتخيل الرّمزي للمقدس، والتّعرض للأماكن الخّاصة الحاملة للأسرار.

[1]- ابن بطوطة: نفس المرجع السابق ص،562،ص،563

والغموض الذي يفتح مجالا للتأويل وطرح التساؤلات ممن أجل كشف ألّا مألوف والمفعل أيضا لعنصر التشويق الحامل لمزيا من الرّغبة في فك شّفرة هذا الغموض، ومردّ ذلك الى طبيعة المعتقدّ ونزعته الإعتقادية المتعلّقة بالمقدّسات وتلقيها إمّا بالتّسليم والتفويض، وطرح الإستدلالات والبّراهين التي تكشف عن نواميس الغّريب وبين من ينزع الى منزع العقلية وعدم الخضوع لأيّ خبر كائن ما كان، ودفعه على سبيل المعارضة بإيجاد البراهين والأدلّة المنطقية، ومحاولة إبطال الدّعاوي العريضة التي تصل في تقدّيسها للأشياء الى حدّي الّا معقول ، فيتولد خطابان متعاكسان إنعكاسا ضديا يولد الصّراع بين المذاهب والفرق والتيارات المتباينة، الى درجة التوتّر حيث يكونان على طرفي نقيض، ولا تكون الغلبة لأي منهما، فقد قال غوستاف لوبون في هذا الشأن: في كتابه الآراء والمعتقدات وهو يتحدث عن عجز العقل عن التأثير في المعتقد: «قد يسيطر العقل على المعتقد عندما يلحق قبل أفوله وهنّ ودروس بفعل تطوّر الأشياء الطّبيعي، وأمّا المعتقد في دور انتصاره فإنه لا يحاول أنّ يقاتل العقل، نظرا لأن هذا الأخير لا يعارضه في ذلك الحين حقا ليس ما هو أندر من ظهور أناس في دور الإيمان هم من الإستقلال بحيث يجادلون في أمر المعتقد مجادلة عقلية"[1].

- **حكاية النّارجيل:**

وهو جوز الهند، وهذا الشجر من أغرب الأشجار شأناً وأعجبها أمراً، وشجره شبه النخل لا فرق بينهما إلّا أن هذه تُثمر تمراً وتلك تُثمر جوزاً، وجوزها يشبه رأس ابن آدم لأنّ فيها شبه العينين والفم. وداخلها شبه الدّماغ، إذا كانت خضراء، وعليها ليف شبه الشعر، وهم يصنعون به حبالًا يخيطون بها المراكب، عوضا من مسامير الحديد، ويصنعون منه الحبال للمراكب، والجوزة منها، وخصوصًا التي بجزائر ذيبة المهل، تكون بمقدار رأس الآدمي.[2]

وجه الغرائبية فيها:

ذكر ابن بطوطة هذا النوع من النبات الذي استغرب شكله في كونه يشبه ابن آدم وفيه شبه العينين والفم، وداخلها شبه الدّماغ وساق قصه هي اغرب من شكلها، وقد فنّدها كذب أصلها

[1]- غوستاف لوبون: الآراء والمعتقدات، كلمات عربية للترجمة والنشر، دون طبعة، 2012م

[2]- كرم بستاني:رحلة ابن بطوطة، مرجع سابق ،ص،263،ص 264

وأعتذر في سوقها لكونها شائعة في تلك البلاد، ذكرها استئناسا وهذا ما أوقع امتزاجا بين النّص الوصفي في الواقعي وتماهيه بالنّص الأسطوري وهذا التماهي هو تلك القرينة التي ضمنها ابن بطوطة في سبب وجود هذا النوع من الثمرة، الغريبة في شكلها والتي تحمّل المتلقي على التطلع الى حقيقة هذه النبتّة، وممّا يجدر القول أن تشكل الغرائبية، في النّص مرتبط بالقارئ أكثر من إرتباطه بالنص، لأن المشارب الثقافية تختلف من شخص لآخر، كما يقول تودوروف" يكمن الفنتاستيكي في القارئ وليس النّص، ايّ التأويل ليس الكتابة" ونرى أن الغرائبية اكتسبت حيزا واسعا في النّص المكتوب عن رحلته للهند والصّين لتشبع أهل تلك المناطق بالغريب نظرا للوعهم به، وتوغلهم في السحر والشعوذة والطقوس الغريبة التي تعتبر جزء من التراث الثقافي عندهم، فما هو غريب لدى شعب من الشعوب لا يكون على درجة واحدة من الغرابة بالنسبة لشعب آخر، فابن بطوطة بكونه من إقليم عربي مسلم تختلف بنية منظومته الثقافية والفكرية عن بنية ثقافة تلك المنطقة، لما تلقى خبر سبب وجود ثمرة النرجيل بتلك الكيّفية الغريبة في شكلها كذّبها وفنّدها، معتبرا إياها من القصص الخرافية الزائفة.

- **حكاية طائر الرّخ:**

ولما كان في اليوم الثالث والأربعين ظهر لنا الفجر جبلٌ في البحر بيننا وبينه نحو عشرين ميلاً، والريح تحملنا الى صوبه، فعجب البحريّة وقالوا: لسنا بقرب من البر، ولا يُعهَدُ في البحر جبل، وإن اضطرتّنا الريح اليه هلكنا، فلجأ الناس الى التضرّع والإخلاص، وجدّدوا التوبة، وابتهلنا الى الله بالدعاء وتوسلنا بنبيّه، صلّى الله عليه وسلّم، ونذر التجّار الصدقات الكثيرة، وكتبتها لهم في زمام بخطّي، وسكنت الريح بعض سكون، ثمّ رأينا ذلك الجبل عند طلوع الشمس قد ارتفع في الهواء وظهر الضوء فيما بينه وبين البحر، فعجبنا من ذلك، ورأيتُ البحرية يبكون ويودع بعضهم بعضا، فقلت ما شأنكم؟ فقالوا: إن الذي تخيّلناه جبلاً هو الرُّخّ وإن رآنا أهلكنا، وبيننا وبينه إذ ذاك أقلّ من عشرة أميال. ثمّ إن الله تعالى منَّ علينا بريح طيبة صرفتنا عن صوبه، فلم نره ولا عرفنا حقيقة صورته. وبعد شهرين من ذلك اليوم وصلنا الجاوة ونزلنا الى سُمُطرة، فوجدنا سلطانها الملك الظاهر قد قدم من غزاة

له، وجاء بسبي كثير، فبعث لي جاريتين وغلامين وأنزلني على العادة وحضرتُ إعراسَ ولده مع بنت أخيه.[1]

وجه الغرائبية فيه:

إكتّست هذه القصّة طابعاً غرائبيا أشبه بقصص الفانتازيا الخيالية لولا أن بطوطة سردّها ضمن رحلاته الحقيقية؟ فالناضر في هذه الرّحلة البحريّة لا يجد فيها واقعاً ماثلًا أشبه من متخيل إفتراضي، ومتخيل أشبه بواقع حقيقي ممّا رآه ابن بطوطة لطائر الرّخ هذا، فهو ضخم الجثة بلغت به إلى أن حجب ضوء الشمس إضافة إلى دكون لوونه وقتامة، ومن ضخامته أيضا تخّيلوه جبلًا رغم أن المسافة الفاصلة عنه تقدر بعشرين ميلًا، وابن بطوطة ليس هو الوحيد الذي حدث عن هذا المخلوق الغريب، فإن الكثير من المؤلفات العربية القديمة حفلت بكثير من المبالغات حوله، مع أن هناك بعض العلماء أكّدوا حقيقة وجوده، ووصفوه بالضّخامة، لونه داكن يميل الى السّواد بيضه وأفراخه كبيرة، يعيش في المناطق النّائية المهجورة الفسيحة تشغل ربع الكرة الأرضية من ناحية الجنوب الشرقي منها، وقد كانت هذه الأماكن أكثر ملائمة لطائر الرّخ لخلوها من العمران وانعدام العوائق الطبيعية المهلكة، كما أن البحار كانت تشكل مجالاً خصباً للغذاء الذي يقتانه من الأسماك والحيوانات كما ان الدّراسات العلميّة المعاصّرة أدرجته ضمن الحيوانات المنقرضة كالديناصّورات والحيوانات الضخمة، كما أنها أكدت وجوده المتأخر الى زمن الوجود تاريخي للإنسان، ومنه يمكننا القول بأننا لا نستطيع أن نضفي على وجوده صبغة الخرافة أو الأسطورة مع ما فيه من الغرابة، طالما أننا نصدّق بوجود حيوانات شبيهة في الضّخامة بهذا الطائر، على نحو ما أمّدته لنا الاكتشافات العلمية والأثار الجيولوجيّة والمستحاثات الجيولوجيّة التي حدّدت العصّور وطبيعة الحياة في عصر منها.

لكن الحكاية فيها من الغرائبية ما يبعث في المتلقي روح المبادرة والتّشويق ويجعله ينجذّب إليها وينفتح على عالم المتخيّل في إمكانية سعة إستعاب المخيلة لمثل هذه القصّص المثيرة، التي تعتبر نافذة إلى عالم الغرابة المودع في هذا العالم الواقعي.

[1]- كرم البستاني: نفس المرجع السابق ص،646ص،647

د–الغرائبية الخيالية:

✓ **حكاية الجرادة المتكلمة:**

يتولد من النّص الرّحلي عمومًا ومن نّص رحلة ابن بطوطة خصوصًا، كسر النمطيّة وتحريض المتخيّل، من قيود الواقع إلى دخوله في دائرة الخيّال الّا متناهي ممّا يستقرا من عجائب التاريخ والحكايات الشعبية والسيّر والكرامات، والمعجزات وخوارق العادات في سائر المخلوقات التي تعد تحطيما للقيود المألوفة والخروج بها الى ما فوق الطّبيعي والخارق، والغيبي سعيا لوجود نوع من التقابل بين المألوف والّا مألوف فيجتمعان ولا يتناقضان وذلك من أجل إرساء التوازن، والغريب" لا يضعنا في الواقع اليومي الّا ممن أجل إقحامنا في الغيب".[1]

ومن القصّص الغريبة تكليم الحيوان، الذي يدخل ضمن الخوارق المعجزة كحكاية الجرادة المتكلمة التي حكاها الفقيه، وهو يخبر السلطان، حينما وقع الجرّاد في بلاده وخرج أحد صلحائهم الى موضع الجرّاد، فإندهش لكثرته وقال هذا جرّاد كثير، فردت عليه جرّادة منه وقالت: إن البلاد التي يكثر فيها الظلم، يبعثنا الله لفساد زرعها. فصدّقه القاضي والسلطان وقال: عند ذلك الأمر إني بريء من الظلم ومن ظَلَمَ منكم، عاقَبته ومن علم بظالم، ولم يعلمني به فذنوبُ ذلك الظالم في عنقه والله حسبه وسائله ولما قال هذا الكلام وضع الفَرارية* عمائمهم عن رؤوسهم وتبرأوا من الظلم.[2]

فالمتتبع لحوادث التاريخ، فيما رواه المؤرخون قبل ابن بطوطة لما هو من جنس هذه الحكاية، ما روي عن الإرهاصات التي سبقت، نبينا صلّى الله عليه وسلّم بما هو أغرب من حديث الجرّادة كتسليم الحجر عليه قبل النبوة، وكحنين جذع النخلة له، حينما فارقه، الى موضع آخر من المسجد، حينما أوتي له بنجار صنع له منبر من خشب جديد فسمع الصّحابة بكاءه اقترب منه النبي صلّى الله عليه وسلّم واضعا يده عليه حتى سكن.[3]

*الفرارية: الامراء، المحقق: طلال حرب،رحلة ابن بطوطة، تحفة النظار في غرائب الأنصار،معجم لغوي،ط5،سنة الطباعة2011،ص811

[1] – شعيب حليفي: الرحلة في الأدب العربي، ط أفريل2012،ص433.

[2] –كرم البستاني: رحلة ابن بطوطة، مرجع سبق ذكره،ص688.

[3] – أبو بكر جابر الجزائري:هذا الحبيب محمّد رسول الله ﷺ، دار الكتب العلمية،الطبعةالاولى،1428هـ/2007م،ص333،334.

وهناك حكاية أخرى مماثلة لحكاية الجرّادة، وهي حكاية شهادة الذئب برسالته صلّى الله عليه وسلّم، فقد روي أحمد رحمه الله تعالى في مسنده عن أبي سعيد الخدري رضيّ الله عنه قال: عدى الذئب على شاة فأخذها، فطلبها الرّاعي فأنتزعها منه فأقعى الذئب على ذنبه فقال:

ألّا تتقي الله، تنزع مني رزقا ساقه الله إليّ. فقال: ياعجبي ذئب يكلمني كلام الإنس! فقال الذئب: ألّا أخبرك بأعجب من ذلك؟ مُحَمَّد بشر يخبر الناس بأنباء ما قد سبق، قال: فأقبل الرّاعي يسوق غنمه حتى دخل المدينة فزواها الى زاوية من زواياها، ثمّ اتى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فأخبره فأمر النبيّ صلّى الله عليه وسلّم فنوديه الصّلاة جامعة، ثمّ خرج فقال للرّاعي: أخبرهم فأخبرهم، فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم:" صدّق والذي نفس مُحَمَّد بيده لا تقوم الساعة حتى يكلم السباع الإنس، ويكلم الرجل عذبة سوطه، وشراك فعله، ويخبره فخذه بما أحدث أهله بعده".[1]

وكان ذلك سببا في إسلام الرّاعي، بين يديه رسول الله صلى الله عليه وسلّم وهذا ما جعل النبيّ صلّى الله عليه وسلّم يقول: فما في معناه أنه يأتي في آخر، الزمان تكون فيه الحيوانات تتكلم.

كما أن ابن بطوطة في موضع آخر من رحلته يذكر، أن بهيمه تكلمت مع شيخ وإختفت حين موتها، وقال: "أنها علامة على كرامة الشيخ".[2]

أعطت هذه القصّة فضاء للعجائبية، وأبانت مهارة ابن بطوطة في تقديمه لكل عجيب وغريب، عاينه في البلدان المجهولة، حيث اشتملت، على إبراز عنصر التشويق الذي تشكل في المفارقة لصور الآخر، التي تكونت عبر السّماء، أو المشاهدة لشخصيات، غير عاقلة أضفى عليها صفات الشخصيات العاقلة، وهذا من أعجب الحكايات التي ساقها إبن بطوطة في رحلته.

[1]- أبو بكر جابر الجزائري، مرجع سابق /ص،335،336.

[2]- -شعيب حليفي:الرحلة في الأدب العربي، مرجع سابق /ص448.

أدت الرّحلة دورًا فعّالاً في تطوّر الفكر البشري والحضاري للأمم، وكشف المعارف والثّقافات المتّنوعة، وسير أغوار المجهول الذي أنطوى عليه العالم بدافع الرغبة والتشويق، كما أن الرّحلة تعتبر قناة تواصل وتثاقف وإحتكاك بين أنماط متعدّدة من السلوك الإنساني.

هذا ولما كانت رحلة ابن بطوطة إحدى أهم الرّحلات العربيّة، عمدنا الى دراستها وإستخراج الجانب الغرائبي فيها والذي كان حاضرًا في نصّه الرّحلي بقوّة، وبعد تتبعنا لأهم السمات التي تميّزت بها رحلته، لما فيها من الإنزياحات اللاّ مألوفة، توصلنا الى جملة من النتائج جاء من أهمها:

1. على صعيد الأسلوب واللّغة، كان ابن بطوطة تطغى عليه اللّغة التقريريّة المباشرة، سهولة الألفاظ وبساطة المعاني، خالية من التعقيد لا يكتنفها الغموض والإبهام، لم يوظف فيها التشبيهات والإستعارات إلّا قليلًا، ونحن إذا قلنا بخلوها من الغموض لا نقصد به ما يتعلق بالمضمون الذي جاءت به الحكايات الغربية اللّا مألوفة، بل نقصد به الشكل الذي إنبنت عليه اللّغة الواصفة.

2. نجد النّص الرّحلي يعتمد في إستقائه لجمع مادّته الرحلية على مجموعة من الأحداث والأخبار المختلفة يستعين بتقنية الإسترجاع السّردية بداية من لحظة إنطلاقه في وصف المشاهدات الحسّية المباشرة والمثيرة، وربطها بأسبابها ودواعيها التاريخيّة، وهو هنا يطبق مبدأ العلّية أو السببيّة في ربط النتائج بالمقدمات، وردّ الأسباب الى مسبباتها، وإرجاع الفروع الى أصولها.

3. وجدنا عنصر التشويق مهيمن على أكثر نصّوصه الرّحلية والمتمثل في سرد القصّص الغريبة التي تصل الى حدّ اللّامعقول، والخروج بها إلى دائرة الغموض والإبهام في كثير من الأحيان، حين يعجز عن معرفة أسرار وقوع تلك الأحداث المثيرة والمحيّرة، يكتفي بإظهار التعجّب والدّهشة، بل انه وصل به المقام الى أبعد من ذلك وهو إصابته بالدّوار والغثيان من شده وقع المثير في نفسه، وهذا عبارة عن أثر الغريب في نفسه.

4. رحلة ابن بطوطة من حيث قيمتها الموضوعيّة، تعتبر فنّا مفتوحا له قابلية إحتواء لمختلف العلوم والمعارف والفنون والعادات والتّقاليد، ومكشافا للواقع المعيش للأمم والحضارات، ونقل صورة

الآخر بأمانة وصدق وموضوعيّة، وهذا ما جاء واقعا تحت المشاهدة، أمّا ما جاء عن طريق النقل والرّواية فيما سرد له من اخبار ووقائع لم يعهد أن رآها، فإنه يكتفي بذكرها إستئناسا.

5. إنّ نصّ الرّحلة، هو نص فيه من الفن القصصي ما يمكن معه ان يمثل جذور القصة الأدبية، حيث اعتمد على عناصر اساسية واضحة، هي السرد، والحوار والوصف، والبدايات والنهايات، والتشويق والاشتمال على هدف وغاية وهو ايضا، يمثل شكلا اكثر اتساعا، بما سمح من مساحة لعدد من المستويات اللغوية، ان تظهر شعرا كانت ام نثرا، لينقل المهم والجديد، والممتع والنافع.

إلا ان هذه الحكايات الخيالية والغرائبية، وطقوس السحر والاساطير التي كانت ضربا من ضروب البناء الفني في ادب الرّحلات، تظّل بحاجة إلى دراسة مستفيضة لمعرفة الدواعي التي دفعت الرّحالة لذكرها.

وفي الختام أسأل الله-جلّ وعلا-ان يكون عملا صالحا مقبولا، ينفعني يوم لا ينفع مال ولا بنون الّا من أتى الله بقلب سليم، وأشكره على توفيقه لي على إتمام هذا البحث بعد مشّقة وعناء واشكره على آلائه ونعمه إنه سميع مجيب وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

أولا: الكتب

1. أبو بكر جابر الجزائري: هذا الحبيب مُحَمَّد رسول الله ﷺ، دار الكتب العلمية، الطبعة الاولى، 1428 هـ/2007م.

2. أبو عبد الله ياقوت بن ع الله الرومي الحموي: معجم الادباء او ارشاد الاديب الى معرفة الاديب، عبد الفتاح الادريسي، الناشر تين وزيتون للنشر والتوزيع، الجزء الأول، 2014.

3. احمد رمضان احمد: الرحلة والرحالة المسلمون، دار البيان العربي، بدون طبعة.

4. اديب أبي ظاهر: عادات الشعوب وتقاليدها، الطبعة الأولى 1993،دار الشواف للنشر.

5. إسماعيل عربي، تاريخ الرحلة والاسكشاف في البر والبحر،1986.

6. انجيل بطرس: الرحلات في الادب الإنجليزي، مجلة الهلال، القاهرة، ع7،سنة1975م.

7. أنور ابن بندورة، مقال الابعاد الفلسفية في قصة حي بن يقظان، القدس المحتلة /فلسطين، الاحد 22مارس 2009.

8. جورج غريب: ادب الرحلة تاريخه واعلامه، دار الثقافة بيروت–لبنان، ط3، 1979.

9. حسين علام:العجائبي في الادب، الطبعة الأولى 1431هـ/2010م، دار العربية للعلوم ناشرون.

10. خليفي شعيب : رحلة في الادب العربي، ط1، 2006م ،القاهرة.

11. د سميرة انساعد: الرحلة الى المشرق في الادب الجزائري.

12. د نوال عبد الرحمن شوابكة، ادب الرحلات الاندلسية والمغربية.

13. ركان الصفدي:الفن القصصي في النثر العربي حتى مطلع القرن الخامس هجري- " الأولى 2011 الهيئة العامة السورية .

14. سليمان العطار: الخيال عند ابن عربي (النظرية والمجالات) بدون طبعة، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة1991.

15. سميرة انساعد: الرحلة الى المشرق في الادب الجزائري، دار الهدى ،2009.

16. سيدي الحسين بن مُحَمَّد الورثيلاني: التواصل القيمي في الرحلة الورثيلانية نزهة الأنظار في فصل علم التاريخي والأخبار.

17. الشريف الجرجاني: التعريفات، مكتبة لبنان، بيروت، ط1 ،1988.

18. شعيب حليفي: الرحلة في الادب العربي، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1 ،2006.

19. شعيب حليفي: الرحلة في الأدب العربي، ط أفريل2012.

20. صالح احمد العلي: علم التاريخ عند المسلمين، مؤسسة الرسالة، الطبعة ال ثانية1403 هـ/1983م.

21. ضياء الكعبي:السرد العربي القديم، الطبعة الأولى 2005م، دار الفارس للنشر والتوزيع.

22. طلال الحرب: رحلة ابن بطوطة تحفة النظار في غرائب الامصار، الناشر:دار الكتب العلمية–بيروت، ط،5،سنة2011م.

23. طه حسين:ذكرى ابي العلاء، عنى بنشره وتصحيحه: توفيق الرافعي،مكتبة الهلال مصر،ط2.

24. عباس محمود العقاد، رجعة ابي العلاء، منشورات المكتبة العصرية صيدا، بيروت، ط2.

25. عبد الرحمان ابن خلدون: مقدمة ابن خلدون، دار احياء التراث العربي بيروت–لبنان، الجزء الأول.

26. عبد الرحيم مودّن:الرحلة المغربية في القرن التاسع عشر الطبعة الأولى 2016دار السويدي للنشر والتوزيع ص26.

27. عبد الرزاق موافي، ادب الرحلات عند العرب،1410هـ/1990م كلية الاداب جامعة القاهرة.

28. عبد الله كروم، الرحلات بإقليم توات، دراسة تاريخية وادبية للرحلات المخطوطة بخزائن توات.

29. عبد الوهاب الرقيق،هند بن صالح: أدبية الرحلة في رسالة الغفران، الطبعة الأولى جانفي 1999م، الناشر دار مُحَمَّد الحامي.

30. عثماني موافي: في نظرية الادب، من قضايا الشعر والنثر العربي القديم، ج1، دار المعرفة ،القاهرة، مصر(ط1)،2005.

31. علي إبراهيم كردي: ادب الرِّحل في المغرب والاندلس، دمشق الهيئة العامة السورية، الطبعة الأولى 2013م.

32. علي حسن الخربوطلي: المسعودي، دار المعارف بمصر 1968م.

33. عن عائشة عبد الرحمان، الغفران،دراسة نقدية ،دار المعارف،مصر،ط4، 1999م.

34. غوستاف لوبون: الآراء والمعتقدات، كلمات عربية للترجمة والنشر، دون طبعة، 2012م

35. فؤاد قنديل ،ادب الرحلة في التراث العربي،ط1-ط2،ص،67—68.

36. قسطنطين زريق: نحن والتاريخ، دار العلم للملايين، بيروت،ط 1 ،1959.

37. كرم البستاني، رحلة ابن بطوطة، دار بيروت للطباعة والنشر،طبعة 1980م.

38. كمال بن مُحَمَّد الريامي: مشاهير الرحالة العرب، الطبعة الأولى 1434هـ،2013م.

39. مُحَمَّد السويدي: رحلة ابن بطوطة، تحفة النضار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار الجزء الأول .

40. مُحَمَّد بن سعود الحمد، موسوعات الرحلات ،1428هـ-2007م، ط1.

41. مُحَمَّد ترحيني: ابن بطوطة، دراسات عربية.

42. مُحَمَّد حرب فروزات: شتاء وربيع 1984، (رحلة ابن بطوطة)، الآداب الأجنبية، (فصلية)، اتحاد كتاب العرب، دمشق، العدد38-39.

43. مُحَمَّد عبد الرؤوف المناوي التوفيق على مهمات التعريف، تح: مُحَمَّد رضوان الداية، دار الفكر، بيروت لبنان، ط1 ،1990.

44. مولاي بالحميسي: الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر1981.

45. نقلا عن عائشة عبد الرحمان، الغفران، دراسة نقدية ،دار المعارف، ط4، 1999م.

46. نقولا زيادة: الجغرافية والرحلات عند العرب.

47. نوال عبد الرحمان الشوابكة: ادب الرحلات الاندلسية والمغربية حتى نهاية ق19 هـ، دار المأمون للنشر والتوزيع ط 1، 1428هـ/2008م.

48. هومان نظيمان: عنوان المقال:دراسة الطابع القصصي في رسالة الغفران، اضاءات نقدية فصلية "محكمة" السنة الثالثة–العدد تاسع مارس 2013م ص204.

49. ياسين النصير: المساحة المتخفية ،نقلا عن رحلة السرد ،السندباد يعود من بعيد، عليمة قادري، الطبعة الاولى2013،الناشر دار الكتابة للطباعة والنشر والتوزيع جميع الحقوق محفوظة للناشر.

50. ينظر: السرد العربي القديم، ضياء الكعبي.

51. ينظر: عبد الرحيم مؤدّن: الرحلة المغربية في القرن التاسع عشر، مستويات السرد، ط1، 2006، دار السويدي للنشر والتوزيع، –ابو ضبي– الامارات العربية.

ثانيا: المذكرات

52. حساني شريف نجيب: رسالة الغفران للمعري قراءة تاويلية، مذكرة لنيل درجة الماجيستير في الادب واللغة العربية وتخصص: النقد الادبي اشراف الأستاذ الدكتور مُحَمَّد بالخضر فرار ، السنة الجامعية 1432هـ1433هـ/2011،2012م.

53. مذكرة بن شاعة ،أدبيات الرحلة في الادب العربي مذكرة رسالة دكتوراء،إشراف فتحي بوخالفة جامعة مُحَمَّد بوضياف–المسيلة السنة الجامعية 2015/2014.

54. نجاح منصوري: سحر العجائبي في رواية وراء السراب...قليلا لإبراهيم درغوثي مجلة المخبر، العدد الثامن 2012قسم اللغة العربية لجامعة خيضر بسكرة، الجزائر.

55. ينظر: منصور نعيمة:جماليات الخطاب في رخلة ابن بطوطة، دراسة تحليلية تطبيقية، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستر، حامهة وهران,السنة2011/2010.